جمال الدين عياد

نظم الحرب في الإسلام

حقوق إعادة الطبع محفوظة للمؤلف

مكتبة السنة المحمدية
• شارع غبط النوبي ـ القاهرة
ت ٧٩٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

تقديم

فى مثل هذه الأيام من عام مضى ، أصدرت الجزء الأول من بحثى هذا عن حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة . وقد تحدثت فيه عن نشأة الحكومة الإسلامية الأولى فى شىء من التفصيل ، ثم عن دستورها الأغر فى شىء من الاجمال . فكان الجزء الأول مقدمة البحث وفاتحة القول .

واليوم أخرج للناس الجزء الثانى من « حكومة الرسول » بحثاً عن نظم الحرب فى الإسلام ، والذى أحب أن أقوله وأنا أقدم لهذا الجزء ، إنى رأيت النظم الحربية للاسلام ، جوهرة صافية مجردة من طعن المتعصبين وكيد الجاهلين ، بعد ما كتبت هذا البحث .

رأيتها خير ما عرف الإنسان عن شرعة القتال .

رأيتها جماع المثل العليا والمبادىء الإنسانية .

رأيتها طريقاً إلى الامن والسلام ، ورد الظلم والعدوان ، وتحرير الأديان .

ثم نظرت إلى حروب الناس فى عصر العلم والمدنية فوجدتها جماع القسوة والوحشية ، والغدر والخيانة ، والنكث بالعهود ، والاستهانة بالشرف الدولى والكرامة الإنسانية .

ثم وجدت سلم اليوم وسيلة إلى الحروب وطريقاً إلى العدوان ! فآمنت أن حروب الإسلام خير من سلم هذه الأيام .

فهى حروب تلد السلام .

وسلم اليوم يلد الحروب !

وأيقنت أن العالم فى مسيس الحاجة إلى نظم الإسلام الحربية كى يجنب الناس كثيراً من الويلات ، ويعيد للشرف الدولى والمبادىء الإنسانية نور الحياة بعد أن أسكنها ظلمات القبور .

وإن اليوم الذى يدرس فيه العالم نظم الإسلام فى شتى مرافق الحياة ، ويتخذها له شرعة ومنهاجاً ، هو اليوم الذى أسعد فيه واعتز به ، وأعلم أننى لم كن أنادى فى الصحراء ، وإنما كنت أنادى من يسمع القول فيتبع أحسنه .

جمال الدين عطار

كيف شرع القتال

كان القتال محرماً على الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفة لا تطيق حرباً ولا قتالاً ، فلم يؤذن لرسول الله بالقتال ، وإنما أمر بأن يجاهد الناس بالحجة والبرهان والنصح والاقناع ، إذ هكذا أمره الله فقال « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به » أى بالقرآن .

فلما اشتد عداء قريش أمر الله رسوله بالهجرة ، فهاجر بعد أن بايع نفراً من أهل يثرب على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم . ولم يلبث أن دخل أهل المدينة فى دين الله أفواجا ، فلم يبق منزل إلا وفيه ذكر لرسول الله . وهذا زاد من بأس المسلمين ، فأصبحوا أهلاً للحرب والنزال . فشرع الله سبحانه وتعالى القتال . وقد جاءت شرعية القتال فى خطوات عدة : ـ

(أولاً) احلّ الله لرسوله القتال بعد أن كان محرماً عليه ، فله ولأصحابه أن يجاهدوا أعداءهم بقوة السلاح إن شاؤا ، فالله كفيل بنصرهم وتأييدهم . وفى ذلك يقول تعالى : ـ « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وقد كان الإذن بالقتال أول العهد بالمدينة . فلقد روى عن ابن عباس أنه قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ! إنا لله وإنا إليه راجعون ... ليهلكن » فأنزل الله عز وجل « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » . وليس بعجيب أن يأذن الله لرسوله بالقتال أول العهد بالمدينة ؛ فقد عاهده أهلها قبل الهجرة على أن يحاربوا من أجله الأحمر والأسود من الناس .

وليس صحيحاً ما يقال من أن الإذن بالقتال كان آخر العهد بمكة ، فإن سياق الآية ـ كما يقول ابن القيم ـ يدل على أن الإذن بعد الهجرة و إخراجهم من ديارهم .

(ثانياً) فرض الله على المسلمين قتال الذين يقاتلونهم ، فقال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »

(ثالثاً) ولما خرج اليهود على وثيقة الرسول صلى الله عليه وسلم أمره الله بقتالهم فقال « وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين » وقال « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

(رابعاً) أمر الله المسلمين بقتال المشركين كافة ، وذلك بعد أن تمالأ أهل الجزيرة مع قريش ، وتعاهدوا على حرب الرسول . فقال سبحانه « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

حكومة الرسول حكومة سلام

ولا يظن القارىء الكريم أن حكومة الرسول كانت تقر الحرب والقتال بعد إذ نزلت تلكم الآيات . فما هكذا أراد الله عندما شرع القتال ، ونظرة واحدة إلى أوامر الله تكفي لتثبت أنه لم يقصد بالقتال إلا رد العدوان .

فى الآية الأولى لم يأذن لهم بالقتال إلا لأنهم ظلموا .

وفى الآية الثانية أمرهم بقتال من يقاتلهم دون من لا يقاتلهم .

وفى الآية الثالثة أمرهم بقتال اليهود لأنهم نقضوا ما عاهدوا الرسول عليه ، وخانوه والله لا يحب الخائنين .

وفى الآية الأخيرة أمرهم بقتال المشركين جميعاً لأنهم اجتمعوا على حرب المسلمين ، وخرجوا عن حيادهم إلى صفوف قريش بشاركونها عداءها لدين الله .

فشعار المسلمين فى قتالهم قول الله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم » وقوله « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقوله « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

* * *

وثمة حقائق ينبغى أن نبينها للقارىء الكريم قبل أن نمضي فى حديثنا عن هذا الموضوع : ـ

« الحقيقة الأولى » أن أية قوة فى الأرض إذا استطاعت أن تكره الناس على كل شيء ، فلن تستطيع أن تكرهم على الدين ، أو أن تلزمهم إياه وهم له كارهون ، فهى مهما سيطرت عليهم لن تملك منهم إلا السنة تردد ما تكره

عليه من قول ، أو أجساداً تؤدى ما تجبر عليه من عبادة وتقديس . فأما القلوب والأرواح فلن تجد إليها سبيلا . ولن تملك منها كثيراً أو قليلا ، ولن تستطيع معها إكراها وتحويلا .

الحقيقة الثانية أن الله سبحانه قد نهى رسوله الكريم عن أن يلح فى دعوة من يعرض ويتولى . ومن أجل ذلك نزل القرآن يعاتب الرسول لما تصدى لنفر من أشراف قريش يلح في دعوتهم إلى دينه ، فقال سبحانه « فأما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ؟ ! » وإذا كان الأمر كذلك فكيف لرسول الله أن يكره الناس على دين الله وقد عوتب لما تصدى لمن أعرض واستغنى ؟ ! .

ثم إن الله سبحانه قد قرر فى هذه الآيات من سورة عبس أن رسوله الكريم لن يحاسب على إعراض الناس ، ولن يسأل عن كفرهم والحادهم . . . « وما عليك ألا يزكى ؟ ! » .

الحقيقة الثالثة أن الاسلام دين التفكر والتعقل ، والنظر والتدبر فهو يخاطب العقل ، فيدعو بالحكمة ، ويقنع بالحجة ، ويقهر بالبرهان ، ويجادل بالتى هى أحسن .

انظر إليه كيف يثبت أن القرآن من عندالله فينادى فى الناس «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » فيحاول الناس أن يأتوا بمثل القرآن فيعجزوا عجزاً مبيناً، فينادى فيهم ثانيه « قل فائتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » فيحاول الناس وقد خفف الله عنهم فلا يستطيعون ، فينادى فيهم ثالثة « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله

وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا ،فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » فيحاول الناس من جديد وقد حسبوا الأمر يسيراً هيناً ، فإذا به ممتنعاً معجزاً . وما قصد الرحمن من هذه الآيات إلا أن يخاطب العقول فيدفعها إلى الإسلام دفعاً شديداً لا كرها و إجباراً و إنما اقتناعاً و إيمانا ، فليس لعاقل يسمع هذا التحدى الصارخ و يرى من نفسه ذلك العجز الذليل ، إلا و يسرع إلى الإيمان اسراعاً . وقد دفعته الحجة وقهره البرهان ، ولم يكرهه رمح أو يجبره بتار !

واستمع للقرآن الكريم إذ يدعو إلى التفكر فى خلق السموات والأرض ، ليؤمن الناس بالله الذى خلقهن بعد تفكر وتدبر ونظر واقتناع . استمع للقرآن فى هذه الآيات« إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها و بث فيها من كل دابه وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ثم استمع للقرآن في هـذه الآيات : «افرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ . . أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ . . أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ . . أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ » .

فما للناس لا يؤمنون ؟ « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت و إلى السماء كيف رفعت ، و إلى الجبال كيف نصبت ، و إلى الأرض كيف سطحت ؟» .

ثم ما لهم كيف يكفرون ؟ « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله

لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ! » . . أفلا يؤمنون بالله « الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ؟ .

هـذه الآيات تدعوك يا أخى أول ما تدعو إلى النظر والتدبر ، والتفكر والتعقل . فاستجب لما تدعوك إليه ثم انظر ماذا تسمع وترى ؟ .

هل ترى إلا نفسا قد آمنت ، وقلباً قد اطمئن ؟ وهل تسمع إلا لسانا يردد قول الله تعالى « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ! » أو قول الاعرابى الحكيم « ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وانهار مجراه : إن فى السماء لخبرا . وإن فى الأرض لعبرا » ثم لتسائل نفسك بعد ذلك : « أفلا يدل هذا على اللطيف الخبير ؟ .

مثل هذا الإيمان هو الذى دعا إليه الإسلام بما قدمنا من آيات ، ذلك بأن إيمان العقل لا يذهب ولا يضعف مادامت للإنسان عين تنظر وعقل يفكر . بل يزداد على الأيام قوة كلما ازداد النظر والتفكر . فأما إيمان التقليد فانه أضعف من أن يصمد لكيد الشيطان ، ولو كان كيده أوهى من خيط العنكبوت ! وأما إيمان الاكراه فانه النفاق بعينه . إنه الايمان الزائف الذى لا يعرف إلى القلوب سبيلا . وحاشا لله أن يكون إيمان الناس بدينه إيماناً ضعيفاً أو زائفاً .

لقد حارب الاسلام العقول الراكدة التى لا تفكر ولا تعقل . وعاب أصحابها إذ عطلوا هذه النعمة الكبرى وهبطوا بأنفسهم إلى مستوى الحيوان الذى لا يجد عقلا يفكر به ويتدبر . ومن يدرى فلعله لو وجد عقلا لفكر به وقدر ! حارب الاسلام هذا الصنف من الناس الذين إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله « قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ! أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ! ومثل

الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون » .

ولقد ضرب القرآن للناس مثلا قصة إبراهيم ، إذ كان يهدى قومه بالحجة والمنطق ، ويدعوهم إلى النظر والتفكر ، ليكونوا من المؤمنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي . وكان قومه نجامين فاطمأنوا إليه ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، ليبين لهم أنه شيئاً يتغير ويتحول لا يليق أن يتخذ إلها ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . وإنما أراد بذلك أن يصرف قومه عن هذا الضلال المبين ، ولكنهم لم يأبهوا له واطمأنوا لآلهتهم التى عابها ، وأظهر لهم نقصها وقصورها . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هذا أكبر . فلما أفلت قويت عليهم الحجة وأخذهم البرهان . ولكنهم لم يستجيبوا لداعى الحق ، وظلوا على آلهتهم عاكفين فقال لهم إبراهيم « ياقوم إنى برىء مما تشركون » فما آمن إبراهيم بنجم أو شمس أو قمر ، وإنما أراد أن يبين لقومه كيف يكون الإيمان نتيجة الفكرة وثمرة العقل ووليد النظر والتدبر . وتلك سنة الله فيما نزل من رسالات . ولن تجد لسنة الله تبديلا .

* * *

تلكم هى الحقائق الثلاث التى ينبغى أن نقف عندها متأملين ، عند ما نتحدث عن موقف الحكومة الرشيدة من الإكراه فى الدين ، لنرى كيف أن الاسلام برىء مما يزعم المفترون . فلقد حرصت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن تسود السلم والأمن والطمأنينة بين الناس ، فلم تكن تلجأ إلى الحرب إلا إذا

اضطرت إليها اضطراراً . ولكم جنحت للسلم تحل بها مشاكلها مع العدو قبل أن يضطرها إلى حربه .

ألم تر كيف سالم رسول الله اليهود ووادعهم ، فأمنهم على دينهم وأموالهم وأرواحهم ؟ ثم ألم تر كيف كانوا يؤلبون على رسول الله ، ويجادلونه بغير الحق ، وهو يرد كيدهم باللين والحكمة وحسن السياسة حتى إذا بلغ السيل الزبى ، ولم يجد معهم لين ولا حكمة ، حاربهم ونفاهم من الأرض .

لقد حاولوا التفرقة بين المسلمين بعد أن جعلهم الله إخواناً متحابين ، فأرسلوا غلاماً منهم إلى الأوس والخزرج يذكرهم بيوم بعاث ، يوم انتصرت الأوس على الخزرج ، ولم يقم عنهم الغلام حتى أفسد بينهم فتواعدوا القتال وتنادوا « السلاح السلاح ! »

فانظر كيف كان موقف نبي الرحمة ورسول السلام . . . لم يزد عليه السلام على أن قال لأنصاره :ـ « الله الله ! أبدعوي الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للاسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم » وماسمع الأنصار هذا القول الحكيم حتى انتزعوا من قلوبهم العداوة والبغضاء وعادوا أشد ألفة وإيثارا . . وهكذا رد عليه السلام كيد اليهود فى نحورهم دون أن يصيبهم بسهم أو يضربهم بسيف ! ولو قد أراد لفعل ، ولن يجد لائماً أو عاتباً ، لأن القوم أرادوا له الشر ، وائتمروا بأنصاره ليقتتلوا فتذهب ريحهم وتضعف شوكتهم . فلا أقل من يجزيهم شراً بشر « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ولكنه آثر الحلم وجنح للسلم فألف بين أنصاره بحسن سياسته وجميل حكمته . ولا عجب « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

وقد كان جديراً باليهود أن يكفوا عن سياسة العداء لما يجدون من تسامح

الرسول وعفوه وسمو سياسته ، ولكنهم أبوا إلا تعنتاً وفساداً فمضوا يجادلونه بالباطل ليفسدوا عقيدة المسلمين و يزعزعوا إيمانهم ، ولكن هيهات هيهات . . .

ولقد ظلوا على هذه السياسة عامين اثنين ، والرسول لا يحاربهم إلا بالحجة ، والمسلمون لا يناضلونهم إلا بقوة الايمان . حتى إذا انتهى العامان بغزوة بدر الكبرى بلغت وقاحتهم غايتها ومنتهاها إذ كشفت طائفة منهم عن عورة امرأة مسلمة ، فثار المسلمون لهذه القحة ، وغضب الرسول عليه السلام ، ولكنه آثر السلم فى هذه المرة أيضاً ، فأرسل يحذرهم عاقبة ظلمهم ، علّهم يثوبوا لرشدهم و يرجعوا عن غيهم . ولم يحاربهم حتى كشفوا عن سواد قلوبهم وسوء نواياهم ، فتوعدوه بالحرب وأقسموا لو حاربوه ليعلمن أنهم الناس ! .

فانظر كيف كان عليه السلام يؤثر السلم حتى يدعوه أعداؤه الى الحرب ! وهو يوم أرسل يحذر تلك الطائفة من اليهود لم يكن عاجزاً عن حربها ، وإنما كان فى قوة حربية ومعنوية تمكنه من سحقها لو أراد . فلقد عاد يومذاك إلى المدينة بعد أن هزم قريشاً فى بدر . وهو بعد هذا الظفر لم يشأ أن يعاقب اليهود على بغيهم قبل أن يحذرهم و ينذرهم ، عسى أن يكون فى التحذير والانذار رجوع إلى الحق ودرء للقتال . فهل بعد هذا حسن سياسة ولين جانب ؟ وهل بعد هذا جنوح للسلم ونفور من الحرب ؟

و إن نظرة واحدة إلى سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم مع بنى النضير كافية لتؤكد ما قدمناه من حرص الحكومة الاسلامية الأولى على السلم ، ورغبتها عن الحرب . فلقد ائتمرت هذه الطائفة الآثمة من اليهود بالرسول الكريم لتقتله . والتآمر على قتل الرسول معناه التآمر بالدعوة الأسلامية . وهذه هى الخيانة العظمى والجريمة الكبرى التى لا تغتفر . فلا أقل من أن يحارب بهم الرسول فيقتلهم كما حاولوا قتله . ولقد حاربهم الرسول فعلاً . وليس يهمنا هذا الآن ، و إنما الذى يهمنا

أنه ما حاربهم إلا مضطراً ! فلقد كان يعمل جاهداً للسلم حتى اللحظة الأخيرة ، ولقد أراد أن يعاقبهم على بغيهم هذا بغير السيف والرمح ، فأرسل يأمرهم بالجلاء عن المدينة ، ولكنهم أبوا إلا تكبراً وعناداً ، فرفضوا الجلاء وأرسلوا يسألونه أن يصنع ما بدا له !

و بربك أيها القارىء الكريم ماذا يصنع الرسول ازاء هؤلاء القوم ؟ ! أيتركهم ليفسدوا فى الأرض بغير الحق ؟ أيتركهم ليطفئوا نور الله والله متم نوره ولو كره الكافرون ؟ أيتركهم ليحاولوا قتله من جديد والله قد أراده داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً ؟ !

لقد حاربهم الرسول بعد أن دعاهم إلى السلم فأبوه ، ولو قد كانت لهم عقول يفقهون بها لجلوا عن المدينة بعد أن كشف الله عن خبثهم ولؤمهم ، ولو قد فعلوا لما حاربهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما نكل بهم .

ولئن كان بنو قينقاع وبنو النضير قد اضطروا الرسول إلى حربهم ، بنقضهم عهده ، ورغبتهم عن موادعته. لقد كان موقف بنى قريظه مثل موقفهم ،فيه تحد صارخ ونقض ظاهر . فلقد انضموا إلى الأحزاب يوم الخندق ، فأعلنوا على رسول الله الحرب ونقضوا العهد .ولولا خدعة نعيم بن مسعود ، لما كفوا عن حرب الرسول . فكيف لا يحاربهم وقد حاربوه ، وكيف لا يعاقبهم وقد خانوه ؟

لقد كانت هذه هي السياسة الحربية التى اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود . وهى كما ترى سياسة لا تعرف الحرب إلا حين تضطر إليه اضطراراً . ولن تزداد بدراسة الحروب النبوية إلا إيمانا بهذه القاعدة . فموقف قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى دفعه إلى حربها . فهى قد كانت حجر عثرة فى سبيل الدعوة الإسلامية ، تحول بين صوت الحق و بين آذان تريد أن

تسمع ، وقلوب تريد أن تؤمن ، ونفوس تريد أن تهتدى . . وهى قد أخرجت المسلمين من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ! فإذا حاربهم الرسول صلى الله عليه وسلم فإنما يحارب قوماً بدءوه بالحرب والعداء ، فآذوه واضطهدوه ، وأخرجوه من وطنه ظلماً وعدواناً ولو قد تركوه ينشر دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، لما كان هناك حرب ولا قتال . ولكنهم وقفوا فى وجه الدعوة ، فوقف فى وجوههم يناضل من أجلها حتى دخل مكة فاتحاً منتصراً .

ولقد عبر عليه السلام عن هذا المعنى الذى قدمناه يوم خرج إلى مكة معتمراً وسمع أن قريشاً قد لبست جلود النمور ونزلت بذى طوى تعاهد الله لا يدخل رسول الله مكة عليها أبداً . فلقد تألم عليه السلام لهذا الصد عن سبيل الله فقال « ياويح قريش ! لقد أهلكتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادو ، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ! فوالله لاأزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أوتنفرد هذه السالفة » . فهو عليه السلام كان يود لو أن قريشاً خلت بينه وبين نشر دعوته ، فلا يفرق فى سبيلها بين سيفه وغمده ، ولكنها أبت إلا صداً عن سبيل الله وكفراً به ، فلم يكن بد من القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وإذا كان هذا خبر قريش ، فما خبر الفرس والروم ألقد بدأت حكومة الرسول بحرب الروم عند حدود الشام فى مؤته وذات السلاسل وتبوك . ولقد سار الراشدون من أخلاف النبى على هذه السياسة حتى هزموا الروم والفرس جميعاً . فهل معنى ذلك أن الإسلام يقر سياسة الحرب من أجل نشر الدعوة ، أوأنه انتشر بالسيف كما يزعم أعداؤه ؟

الحق إن الإسلام لم يجبر أحداً على اتباع رسالته ، ولم يتخذ القوة وسيلة إلى

نشر مبادئه . فلقد نص دستوره الحكيم على حرية العقيدة وحرم الإكراه فى الدين . ولكن حرية العقيدة ينبغى أن تقرر للاسلام كما قررها هو لغيره من الأديان فإذا كان الاسلام قد كفل للناس الحرية فى اختيار العقيدة التى يشاؤون ، فليس ينبغي لأصحاب السلطة والنفوذ من أتباع العقائد الأخرى أن يحولوا دون الدعوة إليه ، أو أن يفتنوا من يريد اعتناقه من أتباعهم ورعاياهم . فإذا حالوا دون دعاته أو فتنوا أتباعه ،لم يكن بد من حربهم حماية لحرية العقيدة التى قررها ودعا إليها تلك الحرية التى اعترفت بهـا الأمم الحديثـة فى عصر العلم والمدنية ، وجعلت حمايتها آية التقدم ودليل النضج الانسانى .

فحروب الإسلام ضد قريش والفرس والروم ، لم تكن حروباً تنشر العقيـدة العقيدة بالسيف ، و إنما هى تأديب لمن يكفرون بحرية العقيدة و يفتنون الناس عما يؤمن به قلوبهم وتطمئن له عقولهم .

و إن موقف الروم من رسول الله ، وموقف رسول الله من الروم لخير ما نذكره فى هذا المقام .

فلقد بدأ عليه السلام يدعو كبيرهم هرقل إلى دين الله ، فأبى أن يؤمن هو وكبراء قومه و إن كان قد أحسن الرد لأسباب سياسية فى أكبر الظن .

ولقد أرسل عليه السلام بعض دعاته إلى ذات الطلحة على حدود الشام ، ليدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقتلهم أعداء الله من أتباع الروم إلا كبيرهم . كما أرسل صلى الله عليه وسلم إلى عامل هرقل على بصرى من يدعوه إلى الإسلام ، فكان جزاء داعية الرسول أن قتله أحد أتباع هرقل من بنى غسان ! ولقد روى أن أحد قادة الجيش الرومى أسلم بعد سرية مؤته ، فما كان من هرقل إلا أن قبض عليه ، ثم أمر به فسجن عله يعود إلى دين آبائه ، فلما وجد منه إصراراً على دين الله قتله ! .

فالإسلام بدأ ينشر مبادىء بالحجة لا بالسيف ، ودعاته قد ذهبوا إلى حدود الشام مسالمين ، لا يبغون حرباً و إنما نصحاً و إرشاداً ، فإذا بأعداء الله يقتلونهم ولا يبالون . والإسلام بعد ذلك إذا حاربهم يقال إنه انتشر بالسيف ، و إنما كان يكافح من أجل حرية العقيدة ، تلك الحرية التي حاول أعداؤه أن يحرموه منها بقتلهم دعاته وفتنتهم أتباعه .

ولو قد كان الإسلام يقر نشر الدعوة بالسيف و إكراه الناس على الدين ، لما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من صاحب إيله ومن أهل الجرباء وأزرح الجزية بعد أن انسحبت أمامه جحافل الروم يوم خرج لقتالهم في تبوك . فإن طبيعة النصر تدفع المرء إلى الظفر بأكبر قسط منه . ولكن رسول الله أبى أن يحارب أهل الجرباء وأزرح و إيلة لما وجد من جنوحهم للسلم . وكيف يحاربهم والله يقول « فإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » لقد سارع عليه السلام فكتب لهم كتب أمان أقرهم فيها على دينهم وأمنهم على أرواحهم وأموالهم ما داموا يعطون الجزية كما يخرج المسلمون الزكاة : والجزية ليست ثمناً يدفعونه لقاء إصرارهم على دينهم ، و إنما هي عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة في سبيل حمايتهم . حتى لقد روى أبو يوسف في كتاب الخراج « أن أبا عبيدة بعد ماصالح أهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج ، بلغه أن الروم قد جمعوا له واشتد الأمر عليه وعلى المسلمين فكتب رضى الله عنه إلى أمراء المدن التي تم صلحها أن يردوا عليهم ما جبى منهم من الجزية والخراج وأن يقولوا لهم : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وانكم قد اشترطتم علينا أن تمنعكم و إنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم » .

غاية الحرب فى الإسلام

ويسير على كل باحث فيما جاء به الكتاب الكريم من آيات القتال أن يعلم غاية الحرب فى الإسلام ، فإنما شرع الله القتال وأذن به لنبيه والمؤمنين كى يضع للبشرية مبدأ الحرية فى العقيدة ، ذلك المبدأ العادل الحكيم الذى يكرِّم الناس ويسمو بهم كل السمو ، فلا يعطل نعمة العقل التى من الله بها عليهم ولا يكرههم على دين أو يجبرهم على مذهب ، وإنما يشعرهم بأن لهم عقولاً تفكر فتعرف الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخبيث من الطيب ، وأن لهم بعد ذلك الحرية الكاملة التى تمكنهم مما يرونه حقاً ، وتؤمنهم مما يرونه باطلاً .

فالله سبحانه لم يأذن للمسلمين بقتال المشركين إلا لأنهم « أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » فهم قوم قد أوذوا فى أنفسهم وأموالهم ، وأريد بهم التحول عما تمليه عليهم عقولهم كرها وإجباراً ، ثم أخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً . وكل الذى فعلوه إنهم قالوا ربنا الله ! !

فهؤلاء المشركون من قريش أرادوا أن يسنوا للناس وأصحاب القوة والسلطان مبدأ الاكراه فى الدين ، بما فعلوا بالرسول وأصحابه من الايذاء والاضطهاد والفتنة والاخراج . وليس يخاف على القارىء الكريم ما حدث لبلال الحبشى ، ذلك المؤمن الصادق الذى قذف به مولاه إلى الصحراء الملتهبة وقد أثقله بصخرة لا يطيقها ، ثم تركه فريسة للحر والجوع والعطش حتى يموت أو يرتد عن دينه . ولئن ترك الله قريشاً تفعل ما تريد من هذا الاكراه لطغى الباطل على الحق ، ولطمس الظلام النور . فلم يكن بد من أن يأذن للرسول

وأصحابه بالقتال حتى يجعل الناس أحراراً فيما يختارون من الدين ، وحتى يذكر اسم الله فى الأرض « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » .

فغاية الحرب فى الإسلام أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فلا يدفع الناس إلى الإيمان بالله سوط سلطان ، أو يصدهم عنه فتنة باغ . ولا يكون فى الأرض غير سلطان الله ، يهدى من يشاء إلى نوره ، ويصرف من يشاء عن طريق الرشاد . أما أن يكون الدين لغير الله من أهل الأرض يصرفونه كيف شاء لهم الهوى ، فيكرهون الناس فى الدين ويصدونهم عما تطمئن إليه قلوبهم ، فذلك ما شرع الله القتال لأجله . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وليس من منطق الأمور أن يحارب الإسلام ليحرر العقائد ثم يقال إن الاسلام يريد أن ينشر دعوته بالسيف ! ولو قد كانت غاية الحرب فى الإسلام نشر العقيدة وإكراه الناس على دين الله ، لما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قتال الرهبان والشيوخ والنساء والولدان[1] ما داموا مسالمين ، لا يحاربون أو يعينون على الحرب بجهد أو عدة أو رأى . وإلا فلماذا يعفى هؤلاء مما يكره عليه الناس ، لو صح أن الإسلام يكره الناس كما يدعى المبطلون ؟ !.

---

(١) مستفاد من مقال للاستاذ محمد البنا

علاقة المسلمين بالدول المجاورة

و ينبغى لنا ـ وقد فصلنا القول في سياسة الاسلام الحربية ـ ن نشير إلى ما كتبه الماوردى فى أحكامه السلطانية ، ثم ننظر رأينا فيه . فلقد قال « إن المشركين فى دار الحرب صنفان : صنف منهم بلغتهم دعوة الاسلام فامتنعوا منها وتألبوا عليها ، فأمير الجيش مخير فى قتالهم بين أمرين يفعل منهما ما علم إنه الأصلح للمسلمين وأنكأ للمشركين من بياتهم ليلاً ونهاراً بالقتال والتحريق ، وأن ينذرهم بالحرب و يصافهم بالقتال .

والصنف الثانى لم تبلغهم دعوة الإسلام ، وقلَّ أن يكونوا اليوم لما قد أظهر الله من دعوة رسوله ، إلا أن يكون قوم من وراء من يقاتلنا من الترك والروم فى مبادى الشرق وأقاصى المغرب لا نعرفهم فيحرم علينا الاقدام على قتالهم غرة و بياتا بالقتل والتحريق ، وأن نبدأهم بالقتال قبل إظهار دعوة الإسلام لهم واعلامهم من معجزات النبوة و إظهار الحجة بما يقودهم إلى الاجابة فإن قاموا على الكفر بعد ظهورها لهم حاربهم وصاروا فيه كمن بلغتهم الدعوة[1] » .

فالماوردى إذن يلخص علاقة الاسلام مع الدول المجاورة فى أن قتالهم واجب متى دعوا إلى الاسلام وأعرضوا عنه . ولست أشك فى خطأ هذا الفهم لحقيقة الاسلام وروحه الحربية . إذ أن معناه الاكراه فى الدين والاجبار على العقيدة بقوة السلاح . والإكراه والاجبار أمران لا يقرهما الاسلام فى دستوره الحكيم . ونقد رأينا فيما قدمنا من القول أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكره

---

(١) ص ٣٥

أحداً على دينه ، وإن الله سبحانه لن يحاسبه على إعراض الناس ، بل إنه عاتبه لما تصدى لمن أعرض واستغنى ، فكيف إذا حارب من أعرض وألزمه الاسلام وهو له كاره !

إن الاسلام لا يبيح قتال الدول المجاورة لإعراضها عن دعاة الاسلام مادامت مسالمة لا تقف فى وجه الدعوة . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . والله تعالى يقول « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » فأما إذا صدت دعاة الاسلام ، وحالت بينهم وبين الدعوة إلى الله ، أو فتنت من آمن بالله ورسوله ، فأخرجتهم من ديارهم ، أو حبست عنهم أموالهم ، أو قاتلتهم واضطهدتهم ، فإذ ذاك يبيح الاسلام القتال بل يجعله فرضاً واجباً ، حفاظاً على كرامة الانسان ، وتحريراً للعقائد والأديان « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فإذا صدت دولة عن سبيل الله ، وحاربها المسلمون حتى مكنوا لدعاتهم سبيل الدعوة ، لم يكن لهم أن يكرهوا أهلها على دين الله بل لهم أن يأخذوا الجزية ممن أعرض كما يأخذون الزكاة ممن آمن ، وأن يكتبوا معهم كتب صلح وأمان كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل ايله ، إذ كتب لهم هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه امنه من الله ومحمد النبى رسول الله ، ليوحنة بن رؤبه وأهل ايله سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » .

وقد تضطرب فى نفس القارىء الكريم آية كريمة وحديث شريف إذا قرأهما قراءة عابرة ونظر إلى ظاهرهما بدا له شيء من التناقض بينهما و بين آيات القتال فى القرآن ، فإذا درسهما دراسة أعمق ، وفهم الظروف التي أحاطت بهما علم أن ليس فى الأمر تناقض ولا اختلاف . فأما الآية الكريمة فهى قول الله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

فهذه الآية الكريمة نزلت فى شأن اليهود الذين نقضوا عهد رسول الله وألبوا عليه الأحزاب . فليست عامة لكل العصور إلا بهذا المعنى ، أي لسنا مكلفين بقتال أهل الكتاب فى عصرنا ، إلا إذا فعلوا مثل مافعل يهود المدينة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكيد للاسلام والتآمر به .

وأما الحديث الشريف فهو قول الرسول الكريم « أمرت أن أقاتل الناس حتي يقولوا لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » فإن المقصود من الناس فى هذا المقام مشركوا العرب [1] الذين بدءوا الرسول بالعدوان وأخرجوه من داره وماله بغير الحق ومن يفعل فعلهم فى مختلف العصور ، كما أن المقصود بأهل الكتاب فى الآية الكريمة يهود العرب أيام النبى خاصة ، ومن يكيد للاسلام مثل كيدهم على مر العصور .

وليس أدل على صدق هذا الرأى من هذا الحديث الذى دار بين أبى بكر وعمر لما هم الأول بقتال المرتدين :ـ

---

(١) الشيخ محمود شلتوت ، القرآن والقتال ، ص ٣٣ .

ـ كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

ـ والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال .

فالناس الذين همّ أبو بكر بحربهم ، هم الناس الذين حاربهم رسول الله حتى أسلموا ، هم مشركوا العرب الذين أمره الله بقتالهم حتى قالوا لا إله إلا الله فجاءه عمر وحاجه فيهم بهذا الحديث .

الحروب الإسلامية .. والمبادىء الإنسانية

إن الباحث عن المبادىء الانسانية فى الحروب الحديثة يكاد يفقدها وسط زحام الوحشية القاسية والبغى المهلك والعدوان الأثيم . حتى ليكاد يشعر أن عهد الجاهلية الأولى قد عاد من جديد يعرض على الناس مبادءه فرضا ، تلك المبادىء التى تجعل القسوة والظلم والعدوان عنوان الشجاعة والبطولة وآية الشرف والسيادة

وليست الحروب الإيطاليه الحبشية ببعيده حتى ننسى أحداثها التى أصابت الإنسانية فى الصميم فهوت بها إلى الدرك الأسفل ورجعت بها إلى العصور الحجرية الأولى مسرعة كل الإسراع . فلقد عمد هؤلاء الطليان إلى الغازات السامة فملئوا بها الجو ليموت الأحباش خنقا و إحراقاً وقذفوهم بالقنابل التى لم يكن لهم بها عهد من قبل ، فما استطاعوا لها صداً ولا لأنفسهم وقاية ، ودمروا المستشفيات بهمة يحسدون عليها !

وهم هنالك فى ليبيا قد فعلوا بالبطل الشهيد عمر المختار مالا تفعله الوحوش الضارية . وكل جرمه أنه ناضل من أجل الحرية والكرامة الانسانية ثنتين وعشرين سنة لا يمل ولا يكل ولا يهن ولا يلين ، فظل يطارد الطليان ألف معركة أو تزيد . وحارب قائدهم الداهية « جرازيانى » فى ثلاث وستين ومائتى معركة ، ولم يك يملك ما يملكون من طيارات ومصفحات ، بل كان يحاربهم بالسيف والرمح من فوق الجياد ، وهو مع ذلك بطل لا تلين له قناة ! حتى إذا جمع الطليان جموعهم ، وحاصروا البطل الصنديد ، تصدى لهم مكافحاً مناضلا ، فكرمه الله بالشهادة ميتة الأبطال ، إذ أسره الأنذال وحكموا عليه بالاعدام ،

ونفذوا الحكم الظالم فى وحشية يصفق لها الشيطان .

وأحلافهم من الألمان فى الحرب العالمية الأخيرة قد دمروا مدينة بغداد فأحالوها إلى أكوام من الانقاض يتصاعد منها حريق النار ، وتتطاير بينها أشلاء النساء والولدان بعد أن أطاحت بها القنابل والمتفجرات . والمدينة المنكوبة كانت مسالمة مكشوفة كما أعلنت حكومتها ، ولكنها الرحمة والشفقة فى الصورة الحديثة والطابع الجديد ! و إذا بحثت عن سبب هذا العدوان اشتد عجبك من قسوته وظلمه فكل الذى كان أن الشعب اليوغسلافى لم يرض عن حكومته التى عقدت ميثاق انضمام إلى دول المحور ، فأبدلها بأخرى . وللشعب الحق فى أن يسيّر أوضاع بلاده الداخلية كما يريد ، وليس لغيره أن يتدخل فى شئونه أو يحد من سلطته التى تقرها الشرائع وترعاها القوانين ، ولكن الألمان أبوا إلا أن يتخذوا من هذا الانقلاب الداخلى وسيلة إلى أطماعهم الخارجية .... « أن الذى يصعب فهمه — كما يقول الدكتور عوض بك — أن الاستياء من حادث داخلى فى دولة من الدول يؤدي حتما إلى تخريب عاصمتها و إزهاق الآلاف من الأرواح البريئة »

و إن تعجب فعجب خبر هذه الذريات ، التى ما كاد يخترعها العلماء ، و يعلنون فتكها الذريع ببنى الإنسان ، حتى سارعت أمريكا الباغية تُصْلى بها اليابان فتحدث ببعض مدنها [1] تخريبا ودماراً ، و إزهاقاً للأرواح لم تعرف له الإنسانية مثيلا من قبل . و إنى لأعلم أن هناك جماعة من الناس يجتمعون فى أمريكا أيام هذه الذكرى الأليمة من كل عام يبكون صنع الإنسان بأخيه الإنسان!

وهذه الأمثلة التى قدمت أقل من أن تصور فكرة الاجرام والوحشية التي امتلأت بها الحروب فى القرن العشرين ، قرن الرقى والمدنية. والروابط الانسانية ! ولكنى

---

(١) هيروشيما و نجازاكى .

أخشى أن تمل نفس القارىء ويقشعر بدنه من الحقائق المرة المؤلمة .

فما ذنب الآمنين فى دورهم وأوطانهم ، حتى تدمر بهم الدور وتدك من حولهم الاوطان ؟ .

وما ذنب الوليد حتى ييتم وهو بعد لا يقوى على الكلام ؟ ! .

وما جرم الأم حتى ترمل وما رحلت إلى ميدان ؟ ! أفهم أن يصاب الجندى فى المعركة أو أن تدمر مصانع الأسلحة ومخازن الذخيرة وكل ما يمكن الجندى من القتال ، ولكن الذى لا أفهمه أن ييتم الأطفال وترمل النساء وتزهق أرواح الشيوخ والضعفاء ، وأن يقتل ويجرح فى الحرب العالمية الأولى وحدها « ٢١ » مليونا من الأنفس « البشرية » التى لم ترع للبشرية حقاً ولا كرامة ، والتى لا تفرق بين الجندى فى الميدان ، و بين الأم التي ترضع وليدها ، أو الشيخ الذى يتعبد فى مصلاه ، أو الطالب الذى يقبل على درسه .

ولست أفهم أن ينحدر الزعماء إلى صفوف القتلة السفاكين . فنسمع عن هتلر زعيم المانيا ، الذى كان يريد أن يبوأ أمته المكان الأول من العالم المتحضر يسعى إلى اغتيال دلفوس زعيم النمسا المرة تلو المرة ، حتى يخلو له وجه النمسا فيضمها إلى جوفه المتعطش إلى الظلم والاستعمار .

ولست أفهم أن يسعى هذا الزعيم إلى اختطاف « هاشا » زعيم تشيكوسلوفاكيا فيستدرجه إلى المانيا ، حتى إذا بلغها أسره وأملى عليه شروطه المجحفة بعد أن هدده بألوان الذل والنكال إذا هو لم يذعن لما يريد .

ولست أفهم أن يأتى الفرنسيس إلى بلادنا فيدخلونها غصباً ثم لا يرعون لدينا حرمة فيتخذون من الأزهر الشريف مكانا تبول فيه خيولهم ! .

ثم لا أفهم بعد ذلك ان تشهد فلسطين فى هذه الأيام ألوانا من الوحشيه اطّخ بها اليهود الأنذال وجه الإنسانية فصبغوه بالسواد . وهل أشنع من أن تبقر بطون

الحبالى ، فيموت الجنين قبل أن يخرج من بطن أمه ، وتموت الأم قبل أن تسعد بوليدها الذى حملته وهنا على وهن !! أقسم لو أن الحجارة تعقل لتفجر منها ماء الرحمة دفاقاً ، ولكنها الإنسانية فى عصر العلم والمدنية ! فلنحنى رؤوسنا لعصر العلم والمدنية .

هذا كله ـ وهو قليل من كثير ـ لا أفهمه ولا أعقله حتى لأكاد أنكره كل الإنكار لولا أن يصفعنى الأمر الواقع فأؤمن بالحقيقة المرة .

إن من ينظر إلى الحاضر الماثل أو الماضى القريب فتؤلمه وحشية الحروب وفتك الإنسان بأخيه الإنسان ، لن يجد شفاء من الألم الذى ألمّ به حتى يقرأ عن نظم الحرب فى حكومة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فيرى الإنسانية بأكمل معانيها ، ويلمس البشرية بأكرم صورها . . وإذ ذاك يذكر أن هناك نبيا بعثه الله للناس كافة : فبلغ رسالات ربه : ينشر السلام ، ويحرر العقائد ، ويكرم الإنسان ، ويجعل للحروب رسالة سامية لا تقوم إلا بها ، ثم يحليها بآداب وفضائل تكاد تذهب بشرها وتطفىء نارها . لقد كان عليه السلام كلما أرسل جيشاً قال « سيروا باسم الله وفى سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، ولا تمثلوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليدا » وقد نهى فى غزوة أحد عن قتل أعمى ، سلك فى حائط لبعض المنافقين فقام يحثو التراب فى وجوه المسلمين ويقول لا أحل لك أن تدخل فى حائطى إن كنت رسول الله ! فارتفعت سيوف الصحابة فوق عنقه تريد أن تهوى عليه لولا أن قال لهم رسول الله « لاتقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر » . وفى غزوة خيبر أهدت امرأة يهودية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، شاة مشوية قد أكثرت السم فى ذراعها لمّا علمت أن الذراع أحب اللحم إلى رسول الله . فلما انتهش من ذراعها علم أنه مسموم فأخرج الأكلة من فيه . وقال

« اجمعوا إلى من هنا من اليهود » فجمع اليهود . فقال لهم : إنى سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقى فيه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، فقال لهم . من أبوكم ؟ » قالوا : « أبونا فلان » قال « كذبتم أبوكم فلان » قال « صدقت و برزت » قال « هل أنتم صادقى عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا « نعم يا أبا القاسم و إن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا » فقال : « من أهل النار ؟ » قالوا « نكون فيها يسيراً ، ثم تخلفوننا فيها » فقال لهم رسول الله « اخسئوا فيها فوالله لانخلفكم فيها أبدا » ثم قال « هل أنتم صادقى عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا « نعم » قال « أجعلتم فى هذه الشاة سماً ؟ » قالوا « نعم » قال « فما حملكم على ذلك؟ » قالوا « أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك . و إن كنت نبياً لم يضرك . وجيء بالمرأة إلى رسول فقالت « أردت قتلك » فقال « ما كان الله ليسلطك على » فقال أصحاب رسول الله « ألا نقتلها ؟ » فقال لهم « لا » . وقد ذكرت بعض الروايات أنه أمر بقتلها بعد أن علم بوفاة بشر بن البراء بن معرور من جراء أكلتها . وسيان عندنا أقتلها آخر الأمر أم لم يقتلها فهذا أمر لا نبحث فيه الآن . و إنما الذى يعنينا أنه لم يقتلها و بشر على قيد الحياة ، بيد أنه يمقت الغدر وينكل بالخائن . و إن فعلتها لتشبه فعلة بنى النضير ، فكل حاول قتل الرسول و إن اختلفت الوسيلة . هؤلاء يريدون أن يقذفوه بالرحا ، وهذه تدس له السم فى الطعام . وقد حرق الرسول نخل بنى النضير ، ونفاهم من الأرض بعد أن أخذ أموالهم وأسلحتهم لغدرهم به . ولكنه لم يفعل شيئاً باليهودية لما غدرت به ، ومن هذا يتبين لنا مقدار نهيه صلى الله عليه وسلم عن قتل المرأة والتمثيل بها .

ولما جاء مِكْرز بن حفص ليفدى سهيل بن عمرو ، وكان من أسرى بدر ، أراد عمر بن الخطاب أن ينزع ثنيتيه قبل أن يطلق سراحه ، فيدلع لسانه ،

ولا يقوم على رسول الله خطيباً فى موطن أبداً . ولكن الرسول نهاه عن ذلك ، فقال « لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً! »

وقد رأت سودة بنت زمعه زوج الرسول أحد أسرى بدر وقد جمعت يداه إلى عنقه ، فرق قلبها لحاله ، وساءها ما أصبح فيه من ذلة وهوان ، فخاطبته قائلة: أى أبا يزيد : أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم ! إلا متم كراماً !! فعجب الرسول من أمرها ، وقال غاضباً : « ياسودة أعلى الله عز وجل وعلى رسوله تحرضين ! فقالت : يارسول الله : والله الذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعه يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت . فما كان من رسول الله إلا أن قال لأصحابه « استوصوا بهم خيراً »

ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن التمثيل بالعدو ، فقد كانت قريش تبيح ذلك لنفسها . فلم تكن تستحى أن ترد البر بالسوء ، والعطف بالقسوة ، والإنسانية بالوحشية ، ولسنا نفترى عليهم أو ندعى كذباً . فهذا يوم أحد شاهد عليهم ، بل وهذه بطن حمزة أسد الله وأسد رسوله تشهد أنهم بقروها ، وهذه كبده تشهد أنهم مضغوها ، وهذه أذنه تشهد أنهم قطعوها ، وهذا أنفه يشهد أنهم جدعوه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . لقد حزن رسول الله لمقتل حمزة ، وامتلأ قلبه الشريف حقداً على قريش عندما مثلوا به ، حتى لقد هم أن يمثل بثلاثين منهم إن أظهره الله عليهم يوماً . لولا أن نزل الوحى من السماء يحمل هذا الأدب الخالد ، الذى يريده الله لرسوله والمؤمنين « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » وما سمع الرسول هذه الآية الكريمة حتى تأدب بأدب الله واستغفره ونهى أصحابه عن المثله .

ولقد حرصت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن تجنب المدنيين ويلات الحرب ، فنهت عن قتل الوليد والمرأة والأعمى كما قدمنا القول ، إلا أن المدنى إذا انقلب عسكرياً أوجبت حربه ولو كان امرأة أو شيخاً . فلقد حدث يوم الفتح أن كتب حاطب بن بلتعه كتاباً إلى قريش يخبرها فيه بمسير الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلا على إن تبلغه قريشاً ، فجعلته فى قرون فى رأسها ثم خرجت به ، فلما بلغ الرسول ذلك أرسل علياً والزبير فقال انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلق على والزبير حتى إذا بلغا المرأة استنزلاها وقالا معك كتاب . فقالت مامعى كتاب ، فنتشا رحلها فلم يجدا شيئاً . فقال لهـا على كرم الله وجه ، أحلف ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك » فلما رأت الجد منه قالت : أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليهما فأتيا به رسول الله . واؤكد أن المرأة لو امتنعت عن أن تخرج الكتاب لجرداها ، ولو امتنعت بعد تجريدها لكان لهما معها شأن آخر ، فلربما قتلاها أو أسراها أو ضرباها حتى تعطيهما الكتاب . لأنها والحالة هذه لم تعد مدنية مسالمة ، وإنما أصبحت مجندة محاربة تكيدللاسلام والمسلمين . فينبغى أن تعامل كما يعامل المحارب . ولقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر بامرأة قتيل فى يوم الخندق فقال : من قتل هذه ؟ قال رجل أنا يارسول الله ، قال : ولم ؟ قال نازعتنى قائم سيفى : فسكت عليه السلام .

وهو عليه السلام لم يكن يقذف الحصون أو يضرب المدائن إلا إذا امتنعت عن التسليم وكادت له من خلف أسوار الحصون. فهو لم ينصب على أهل الطائف

المنجنيق إلا عندما تحصنوا وقذفوا المسلمين من أعلى حصونهم بالنبل ،ولقد أعلن عليه السلام يوم ذاك أنه معتق من جاءه من الطائف ، ففر إليه عشرون رجلا .

فالإسلام لا يحارب المدنيين إلا إذا انقلبوا محاربين كما فعلت المرأة التى نازعت رجلا من المسلمين قائم سيفه يوم الخندق ، والمرأة التى همت بافشاء أسرار المسلمين العسكرية يوم الفتح ، وإلا إذا اختلطوا بالمحاربين أو اختلط بهم المحاربون فى حصن أو مدينة محصنة ، كما فعلت ثقيف يوم الطائف ، إذ يصعب بل يستحيل ـ والحالة هذه ـ النيل من المحارب دون أن يصاب المدنى الآمن .

وإن الدروس التى تلقاها الصحابة فى المدرسة الإسلامية الأولى أيام حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم هى التى أملت على الصديق أبى بكر رضى الله عنه قوله يوم ولى الخلافة وبعث جيش أسامة : ـ « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقعروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . » وهذه الفقرة التى يصور فيها الصديق رضى الله عنه ـ هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى القتال ، إنما تبين لنا مقدار حرص الإسلام الحنيف على إشاعة المبادىء الإنسانية فى الحروب تلك المبادىء التى يكاد يفقدها الباحث اليوم بين زحام الوحشية القاسية كما قلت فى أول الحديث ، إن فى تاريخ الإسلام قصة هى أشهر من علم فى رأسه نار ، ولكنا نسجلها ونحدث الناس بها المرة تلو المرة لأن فيها من آيات الرحمة والإنسانية والصفح الجميل مايعجز عن وصفه القلم ولو ملك زمام البلاغة وأوتى إمارة البيان . تلكم هي قصة الفتح . .

يوم جاء رسول الله مكة فاتحاً بعد إن خرج منها طريداً ، فخاطب أهلها

قائلا : يامعشر قريش ! ما ترون إنى فاعل بكم ؟ . قالوا خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : فانى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء !!..

أى عفو هذا وأى صفح ! هذه قريش أمامه ذليلة مهانة ... قريش التى آذته واضطهدته ، وائتمرت به لتقتله ، ثم أخرجته وأصحابه من ديارهم وأموالهم وغزته فى المدينة غير مرة ... إنها اليوم أمامه يستطيع أن يفعل بها مثل ما يفعل الناس فى هذه الأيام بمن يسمونهم مجرمى الحرب ... ولكنه العفو الجميل ، والصفح الخالد .

العهود والمواثيق

إن ما قلته عن المبادىء الانسانية فى هذه الأيام أستطيع أن أقوله عن العهود والمواثيق ، فإن الدول اليوم قد نسيت الشرف والوفاء كما نسيت الرحمة والإنسانية، وآمنت بنقض العهود وخرق المواثيق كما آمنت بالقسوة والوحشية ! حتى لقد أصبحت العهود نفسها مقدمات للعدوان والمعاهدات وسيلة القوى ينال بها من الضعيف ! وحسبى فى هذا المقام ما فعلته انجلترا المجرمة بمصر . فلقد وعدتها بالجلاء أكثر من سبعين مره ... وما كانت تعد إلا لتنقض أو لتخدر أعصاب المجاهدين من أبنائها ، كى تنسيهم جرمها وتقعدهم عن جهادها . فلقد صرح جلادستون رئيس وزراء انجلترا فى مجلس العموم في ١٨ يوليه سنة ١٨٨٢ أن ليس لبريطانيا مطامع فى مصر ، وهى تنوى بكل تحقيق أن تعرض على الاتفاق الاوربى تسوية المسألة المصرية تسوية نهائية . كما صرح فى الثانى عشر من أغسطس من نفس السنة أن « ليس فى نيتنا مطلقاً أن نحتل مصر ، و إذا كان هناك شيء لا نقدم عليه فهو ذلك الاحتلال لأن فيه مناقضة للمبادىء التى أعلنتها حكومة جلالة الملكه ، وللوعود التى وعدتها لأوربا » وفى الرابع عشر من اكتوبر سنة ١٨٩٥ أعلن « السير » شارل ديلك وكيل الخارجية البريطانية « أن الاحتلال الانجليزى مصدر ضعف لانجلترا ، وحيث أننا لا نرى أية مصلحة فى البقاء بمصر ، فلا يوجد سبب يمنع جلاءنا عنها !! » وفى الرابع عشر من يناير سنة ١٨٩٦ أرسل جلادستون إلى الزعيم مصطفى كامل رحمه الله يقول « إن زمن الجلاء على ما أعرف قد حل منذ بضع سنوات ... ! » وحتى اليوم ... وبعد تسعة وستين عاماً من دخول الانجليز مصر ، ومن وعدهم إياها بالجلاء عنها ، لم نر جلاء أو شيئاً يشبه

الجلاء ! بل أن شباب مصر كلما ذكروها بحقهم أو بوعودها ، قابلوا بالحرية والاستقلال وحاربوا الظلم والطغيان ، لم يكن جزاؤهم إلا نكالاً ودماراً ! حتى لقد اقتحم الانجليز الأزهر الشريف يقذفون من احتمى به من دعاة الحريه وأنصار الكرامة الإنسانية بنيران المدافع والبنادق ، فلم يرعوا لبيت الله حرمة ، ولم يجعلوا للوطنية ودعاتها كرامة أو مقاما . وتاريخ الانكليز فى مصر حافل بالغدر والإجرام ، والظلم والوحشية ! فليست احداث دنشواى ، والبدرشين ، والشوبك والعزيزية وغيرها بخافية على متتبع الحركة الوطنية فى مصر الحديثة . أنها كلها دليل على أن الشرف الدولى قد ضاع فى هذه الأيام . وليست انجلترا وحدها هى التى ضاع شرفها ، فإن كثيراً من دول أوربا اليوم تجعل نقض العهود وخرق المواثيق و إذلال الأحرار جزء من سياستها وفقرة من برنامجها فلقد حدث فى الحرب العالمية الأولى أن أغرق الألمان الباخرة الانكليزية الكبيرة لوزيتانيا عند الساحل الايرلندى الجنوبى ، فغرق ركابها وكان بينهم أكثر من مائة أمريكى، فاحتجت أمريكا وتبادلت مع ألمانيا المذكرات حتى تعهدت الأخيرة سنة ١٩١٦ بأن لا تغرق سفينة تجارية قبل أن تنذرها وتعمل على سلامة ركابها ... ولكن الألمان لم يلبثوا أن نقضوا عهدهم بعد عام واحد فأعلنوا أن غواصاتهم سوف تغرق كل سفينة تجارية دون أن تنذرها أو تعمل على سلامة ركابها ، أو تفرق بين سفن الدول المحاربة وسفن الدول المحايدة ! ولعل تلك المعاهدة التى فرضها هتلر على هاشا زعيم شيكوسلوفاكيا فى الحرب العالمية الأخيرة بعد أن استدرجه إلى ألمانيا أكبر دليل على أن المعاهدات أصبحت وسيلة القوى إلى النيل من الضعيف كما قدمت فاذا حاول المستضعف أن يشكو أو يعترض قيل له إن بيننا معاهدة يجب احترامها والعمل بها ! .

وأؤكد أن ما عرفه الحلفاء عن نكث هتلر للعهود كان دافعاً لهم إلى رفض ما عرضه عليهم من الصلح بعد تسليم فرنسا بشهر « حتى أن بعض السلميين من الانجليز ـ كما يقول الأستاذ العقاد ـ كان يخطب فى تحبيذ الصلح العاجل ويفند أسباب الحرب فأوشك أن يبلبل أذهان سامعيه لولا أن تصدى له سائل بسؤال موجز لا يتجاوز أربع كلمات : هل تثق بعهود هتلر ؟ فكانت فصل الخطاب » إن خير ما يبين لنا قيمة المعاهدات عند دول اليوم قصة المستشار الألمانى فى بداية الحرب العظمى .

فلقد كانت بروسيه ، وفرنسا ، وبريطانيا ، والنمسا ، والمجر، وروسيا قد اتفقت سنة ١٨٣٩ على احترام حياد بلجيكا : وأكد مؤتمر السلام الدولى فى لاهاى سنة ١٩٠٧ وجوب احترام الدول لحياد الدولة المعترف بحيادها ، فلا تدخل دولة ما أرضها ، ولا تتخذها ممراً لجنودها ووقعت ألمانيا على هذا القرار كما وقعه غيرها من الدول العظمى ولكنها لم تلبث أن أرسلت إلى بلجيكا مذكرة شديدة اللهجة تطلب فيها السماح لجيوشها بالمرور من الأراضى البلجيكية حتى تتمكن من حرب فرنسا . فكان طبعيا أن ترفض بلجيكا هذا الطلب الجائر الذى ينتهك حرمة حيادها ، لأنها ـ على حد تعبيرها لألمانيا ، إذا قبلت ذلك الطلب ، أضاعت شرفها وكرامتها وأخلت بالواجب العظيم المقدس نحو أوربا بأسرها .

والذى يهمنا هو الذى حدث بعد هذا ، فلقد احتجت انجلترا على سياسة ألمانيا ، وأنذرتها بالحرب إذا لم تعدل عن خرق حياد بلجيكا ، فكان جواب المستشار الألمانى ما نسجله آسفين لضياع الشرف الدولى : — « ان من الهول ما تنويه حكومة جلالة الملك البريطاني . ومما يعز على أن أتصور جلالته قابلاً دخول الحرب مراعاة لقصاصة ورق يسمونها معاهدة واتفاقاً على حياد أرض ! ! !

وكم من مرة خرقت حرمة مثل هذا الحياد إجابة للضرورات العسكرية ! ! ! » ثم لم يلبث أن أعلن المستشار في مجلس الرايشستاغ قوله « أن الضرورة احدقت بنا والضرورة لا تعرف شريعة ولا تعترف بنظام ! ! ! »

و إذا كانت الضرورات الحربية قد أصبحت تنكر في هذه الأيام الشريعة والنظام ، وتقر الفوضى وقانون الغابة .

ثم إذا كانت العهود والمواثيق قد أصبحت « قصاصات ورق » كما يقول مستشار الإمبراطورية الألمانية « بتمان هلفيج » فأنا لا نعجب من نكثها ولو كان النكث قبل جفاف المداد !

لكننا نسجل الذي قدمنا من القول ، ثم نتبعه بموقف الحكومة الإسلامية الاولى من العهود والمواثيق كي يقارن القارىء الكريم بين الموقفين و ينظر كيف تتميز بضدها الأشياء ...

لقد كان عليه السلام أحرص ما يكون على الوفاء بعهده ، والعمل بميثاقه . فما عاهد قوماً ونقض ، و إن كان قد عوهد وغدر به المرة تلو المرة !

و إنما كان هذا الادب الخالد من عند الله سبحانه ، فهو الذي علم نبيه الوفاء وحرم عليه النكث فقال « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . » وقال « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون »

وقد ردد عليه السلام هذه المعاني السامية في أحاديثه فقال « من كان بينه و بين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء » وقال « ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو » وقال « لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به بقدر غدرته » . وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه

وسلم المثل الأعلى فى البر والوفاء عندما عاهد قريشاً فى سنة الحديبية على وضع الحرب عشر سنين ، وردِّ القرشيين الذين يأتونه مسلمين ، إذ أنه وادعهم حتى بدءوه بالحرب . فقد كانت خزاعه و بنو بكر على شىء كبير من العداء ذهبت حدته بعد صلح الحديبية ، فانضمت احداهما « قبيلة خزاعة » إلى رسول الله . وانضمت الأخرى « بنو بكر » إلى قريش . ولما كان خالد قد رجع من سرية مؤته دون أن يحرز نصراً ، فقد ظن بنو بكر بالمسلمين ضعفاً ، ووجدوا فى ذلك اسنح فرصة للقضاء على خزاعة ، فخرجوا بتحريض عكرمه بن أبى جهل القرشى ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، فسارع رجل من خزاعه يدعى عمرو بن سالم إلى رسول الله صلى الله وسلم يشكو إليه نقض قريش و بنى بكر العهد ، و يسأله النصرة والمعونة . فوعده الرسول النصرة وعزم على محاربة قريش وفتح مكة . فهو صلى الله عليه وسلم لم يحاربهم إلا بعد أن حاربوه ، ولم ينقض العهد إلا بعد أن نقضوه ، شأنه فى كل عهد وميثاق . ثم انه — والعهد يكتب — جاءه رجل من قريش يدعى أبا جندل يريد الإسلام ، فرده إلى قريش والرجل يذوب حسرة و يقول يا معشر المسلمين ارد إلى المشركين وقد جئت مسلما ! ألا ترون ما لقيت ؟ ! . فيقول له الرسول « يا أبا جندل : اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا . إنا قد عقدنا بيننا و بين القوم صلحاً واعطيناهم على ذلك وأعطونا ، عهد الله و إنا لا نغدر بهم » وقد جاءه رجل يدعى أبا رافع موفداً من قريش ، فأسلم وقال « لا أرجع إليهم » فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم « إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد . أرجع إليهم فان كان فى قلبك الذى فيه الآن فارجع » وقد جاءه أبو بصير مسلماً فارسلت قريش فى طلبه رجلين يذكّران رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعهد الذى بينهما ، فدفع الرسول أبا بصير إليهما ،

ولكنه تحايل حتى قتل احدهما . وهم أن يقتل الآخر لولا أن فر راجعاً إلى مسجد رسول الله فى المدينة . فقال الرسول لما رآه : « لقد رأى هذا فزعاً » فقال الرجل « قتل والله صاحبي و إنى لمقتول » ولما جاء أبو بصير قال « يابنى الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى إليهم فأوفانى الله منهم » ولكنه سمع من الرسول كلمات عرف منهن أنه سوف يرده . فخاف أن تهلكه قريش ، وسارع إلى ساحل البحر . وانضم إليه أبو جندل وكل من خرج من قريش مسلماً ورد . وكون الجميع عصابة تخرج إلى قوافل قريش فتقتل رجالها وتسلب أموالها . فأرسلت قريش إلى رسول الله تناشده الله والرحم أن يؤوى من يأتيه منها مسلماً ولا يرده حتى لايفعل مثل ما فعل أبو بصير ، فيضيع عليها مالها ، و يقطع طريق تجارتها . فقبل الرسول ذلك وانزل الله تعالى قوله « وهو الذى كف أيديهم عنكم ، وكف أيديكم عنهم ، ببطن مكة من بعدأن أظفركم عليهم » ولم يكن هذا الشرط من عهد الحديبية نافذاً على النساء . فقد جاءته أم كلثوم بنت عقبه بن أبى معيط تريد الإسلام ، فخرج أخواها عمارة والوليد يطلبانها من رسول الله ، فأبى ذلك عليهما . وقد جاءته سبيعه الأسلميه مسلمة فخرج زوجها فى طلبها ، فاستحلفها رسول الله أنها لم تخرج بغضاً لزوجها أو لحدث أحدثته فى قومها و إنما رغبة فى الإسلام ، فحلفت . فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم مهرها إلى زوجها ولم يردها عليه لأنها لاتحل له بعد إيمانها إذ تحرم الشريعة الاسلامية زواج المسلمة من غير المسلم كما تحرم زواج المسلم من المشركة . وفى ذلك يقول الله تعالى « ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن . الله أعلم بإيمانهن . فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار . لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما انفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ،

ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، واسألوا ما انفقتم وليسألوا ما أنفقوا . ذلك حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عاهد قوماً فنقض بعضهم العهد ، ورضى البعض الآخر بذلك فأقروهم على ما فعلوا وحرضوهم على العدوان عدهم كلهم ناقضين كما فعل بأهل مكة عندما نقض بنو بكر العهد بتحريضهم .

وكان عليه السلام إذا عاهد قوماً فتحالفت فئة ، وتحالفت مع عدوه فئة أخرى ، ثم اعتدت الفئة التى انحازت إلى عدوه على الفئة التى انحازت إليه فكأنما اعتدت عليه . ولهذا غضب لاعتداء بنى بكر على خزاعه وحارب بها .

الفضيلة فى حروب الإسلام

أن المتتبع لحروب الرسول صلى الله عليه وسلم والباحث عن أسبابها ودوافعها يدرك فى سهولة و يسر أن الدين هو أصل الجهاد فى الإسلام أو أن تحرير العقائد وتأمين الدعوة إلى الله وردع البغاة المعتدين هو الغاية من حروبه .

و إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعث بهـذا الدين ليتمم مكارم الأخلاق ، فهل تظن أن جنود الإسلام ينسون الدين والخلق والفضيلة عندما يدعون ليقاتلوا فى سبيل الله ، وهم إنما يحاربون من أجل الدين والخلق الفضيلة ؟.

إن الحروب الإسلامية لم تكن تحول بين المسلمين والصلاة . وقد كان عليه السلام يجمع الصلوات فى وقت واحد إذا حبسه المشركون عنها وظل كذلك حتى نزلت صلاة الخوف بعسفان كما يقول أبو عياش الزرقى فى حديث له « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بعسفان فصلى بنا الظهر ، وعلى المشركين يومئذ خالد بن الوليد . فقالوا لقد أصبنا منهم غفلة . ثم قالوا : إن لهم صلاة بعد هذه هى أحب إليهم من أموالهم وابنائهم فنزلت صلاة الخوف بين الظهر والعصر ففرقنا فرقتين وفى هذه الصلاة يقول أبو هريرة رضى الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نازلا بين ضجنان وعسفان محاصراً للمشركين فقال المشركون : إن لهؤلاء صلاة هم أهوى إليها من أبنائهم وأموالهم اجمعوا أمركم ثم ميلوا عليهم ميلة واحدة . فجاء جبريل فأمره أن يقسم أصحابه نصفين » وقد صلى الرسول صلاة الخوف بغزوة ذات الرقاع فكان إذا نودى للصلاة صلى بطائفة ركعتين ثم بالطائفة الأخرى ركعتين أخريين ، و إذا صلى بطائفة قامت الأخرى تحميها وتدفع عنها العدو . فكان عليه السلام يصلى أربع ركعات والقوم يصلون ركعتين .

والذي أريد أن أقوله الآن أن قوماً يصلون فى ساحة القتال ، ويذكرون قول ربهم « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقول رسولهم : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » لا تحدثهم أنفسهم بمنكر قط ، وإنما تراهم دائما مثلا عاليا للطهر والفضيلة والاستقامة . وهذا ماسجله التاريخ لجنود محمد عليه السلام .

فكما حرصت حكومة رسول الله على تطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، لقد حرصت على تطهيره من عناصر الرذيلة والفساد . فلقد حدث ذات يوم من عام تسع أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجد بن قيس أحد بنى سلمة « ياجد هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر (الروم) ، فقال يارسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ! فوالله لقد عرف قومى أنه مامن رجل بأشد عجباً بالنساء منى و إنى أخشى أن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر » فأعرض عنه رسول الله ، ونزل الله قرآناً يسجل فيه هذه الحطة ، ويحذر المؤمنين من أمثالها فقال « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة سقطوا و إن جهنم لمحيطة بالكافرين » ولقد امتلأت نفوس الصحابة إيماناً بأثر الطهر والفضيلة فى التعجيل بنصر الله ، فكنت ترى عمر رضى الله عنه يكتب لقائد جيشه سعد بن أبى وقاص قائلا « آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، و إنما ينصر المسلمون لمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا و إلا ننصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا ... ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يُسلطَ علينا و إن أسأنا ، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم » . وصدق عمر !.

فهاهى ذى جيوشنا تذهب لتخرج اليهود من فلسطين ، فيسلط الله علينا الدول الكبرى ويخيب رجاءنا فى مجلس الأمن ، فلا ننال حقا ، ولا ترد باطلا . وإنما نعود وقد طاردتنا الخيبة ، ولاحقنا الخسران . وما ذلك إلا نتيجة الفساد الذى عم الشرق العربى فدفع به إلى الخلاعة والمجون والميوعة والاستهتار . ولو عرفت حكومات الشرق العربى وأبناؤه حق الله فأدوه كاملا خالصاً ، لما أصابهم الذى أصابهم ... فلئن تآمرت الدول بنا ، وتفكرت لنا وآزرت عدونا لكان لنا من تقوى الله والإخلاص له مخرجا من كل ضيق ، ونجاة من كل مأزق ، والله كفيل بأن يقذف فى قلوب أعدائنا الرعب كما قذفه فى قلوب الذين كفروا يوم بدر أو يفرق جمعهم ويخذل بينهم كما خذل بين الأحزاب يوم الخندق ... ولله جنود السموات والأرض ... ولكننا ـ ويالأسف ـ قد عصينا الله وعصينا الرسول ، وأقبلنا على اللهو الباطل نبتاعه وايم الله بأموالنا ، فسلط الله علينا من لايخافه ولا يرحمنا ، ولن نزال كذلك ما تركنا كتاب الله وسنة رسوله ، فإن عدنا تائبين مخلصين ، وجدنا من توفيق الله ما يعيننا على أعداد العدة وتسليح الجيش ، وما يصرف الدول الكبرى عن مؤازرة عدونا والتآمر بنا ، ثم ما يعجل بالنصر لنا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز .

فهل تذكر الحكومات والشعوب هذه النصيحة المخلصة من مواطن يفيض قلبه بالإخلاص لوطنه الإسلامى الذى فرقه الفساد وأنهكته الرذيلة ؟ وهل تنفض أيديها من تلكم الجاهليات التى أتتها من الغرب ، والتى بدأ الغرب نفسه يشعر بخطرها وضررها ، ويحاول أن ينفض يده منها ؟ ألم تر إلى فرنسا كيف أطاح بها اللهو والفساد والترف فذلت لجبروت الألمان فى الحرب العالمية الثانية ، وخضعت لسلطانهم فى أقل من دورة القمر ، ووقف زعيمها « بيتان » يعض بنان الندم فيقول

« لقد دمرت روح الانغماس فى الملذات ماشيدته روح التضحيـة » ثم ينصح مواطنيه قائلا « أصلحوا من أخلاقـكم ، ودعوا الترف والملذات ، وأقبلوا على العمل بصبر وتضحية » .

ألا ما أجمل الإسلام حين أمر بالتقوى ودعا إلى الفضيلة ونفّر العسكريين والمدنيين من الرذيلة .

وما أجمل سلوك الجنود المسلمين فيما يفتحونه من أمصار . ثم ما أقبح مايلجأ إليه جنود أوربا اليوم من استخفاف بالأعراض ، واستهتار بالشرف !.

القتال في الشهر الحرام

نزل فى سرية عبد الله بن جحش قول الله تعالى :ـ « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل » وظاهر الآية يحرم القتال ؛ إذ هكذا سياقها (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه : قل قتال فيه كبير ، لا يرضاه الله ، فلا تعودوا إليه أبداً ، لعلكم تفلحون) .

ويرى بعض الأئمة أن هذه الآية لا تحرم القتال فى الشهر الحرام لأن لفظ القتال فيها نكرة فى حيز مثبت فلا تعم . وقد جاء فى تفسير المنار خلاف ذلك . إذ استدل بتنكير لفظ القتال فى السؤال والجواب على التنويع « كأنه قيل : أيصح أن يقع فيه أى قتال ما ؟... قل قتال فيه كبير ، أى أن أىّ قتال فيه ، وإن كان صغيراً فى نفسه أمر كبير مستنكر وقوعه فيه لعظم حرمته » .

وتحريم القتال فى الأشهر الحرم منسوخ بالسنة ؛ إذ ثبت أن الرسول عليه السلام حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم سنة ثمان للهجرة كما ثبت أن سرية الخبط ـ التى قادها أبو عبيدة بن الجراح وكان فيها عمر وثلاثمائة من المهاجرين ـ خرجت فى شهر رجب أحد الأشهر الحرم سنة ثمان أيضاً .

وأما القول بأن ناسخ تحريم القتال هو قوله تعالى :ـ « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » أو قوله تعالى « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » أو قوله « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » هذا القول بأن إحدى هذه الآيات هى التى نسخت تحريم القتال قول لا يستقيم

لأن هذه الآيات نزلت سنة تسع بينما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم لحصار الطائف وخرج أبو عبيدة رضي الله عنه فى سرية الخبط سنة ثمان .

فهذه الآيات ليست ناسخة لتحريم القتال . وإنما هى مؤكدة له ، إذ سبق نسخه بالسنة المطهرة . فهى بمثابة إقرار لما استقر الأمر عليه .

الأسرى

كان عليه السلام يفادى بعضهم بأسرى المسلمين كما فى سرية عبد الله بن جحش إذ أسر الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله وهما أول أسيرين فى الاسلام فبعثت قريش فى فدائهما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فإنا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » ويقصد الرسول بصاحبيه سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان . فقد تركا سرية عبد الله إلى بعير لهما ضل فأسرتهما قريش . ولما سمعت قريش قول الرسول أرسلت سعداً وعتبة ، فرد الرسول عليها الحكم وعبد الله .

وكان عليه السلام يحرص على مفاداة أسرى المسلمين كل الحرص فقد فدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل وقد وقع فى سهم سلمة بن الأكوع جارية حسناء عندما كان فى سرية أبى بكر إلى نجد . فأخذها منه رسول الله وفدى بها أسرى المسلمين بمكة .

وكان عليه السلام يفادى بعض أسرى المشركين بالمال كما فى غزوة بدر . فقد شاور أصحابه فى أسرى قريش . فأشار عليه الصديق بأخذ الفدية منهم حتى ينتفع المسلمون بها ، وعسى أن يهديهم الله إلى الاسلام فيزداد الرسول بهم قوة وأشار عليه عمر بقتلهم لأنهم أعداء الله وأئمة الكفر وشيوخ الضلال ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم رق لقول أبى بكر وفادى الأسرى بالمال فكان الواحد منهم يدفع ما بين الألف درهم إلى الأربعة آلاف . أما الذين لامال لهم فكانوا يفادون أنفسهم بالعمل كأن يعلموا أولاد الأنصار القراءة والكتابة .

وكان عليه السلام يمن على بعض الأسرى فيطلق سراحهم دون أن يفادوا أنفسهم بشيء . فقد كان من بين أسرى بدر شاعر يدعى عبد الله بن عمير خاف على نفسه الهلاك فذكّر الرسول بخمس بنات له لا يعولهن غيره وأعطاه ميثاقاً ليمتنعن عن قتاله ما عاش . فرقّ الرسول له ومن عليه بحريته .

وكان صلى الله عليه وسلم يقتل بعض الأسرى إذا كان فى موتهم نفع للمسلمين أو فى حياتهم ضرر بهم . فقد أمر بقتل اثنين من أسرى بدر هما النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط لشدة عداوتهما لله ورسوله . أما النضر فقد سأل مصعب بن عمير أن يكلم الرسول فى شأنه عسى أن يعفو عنه ولا يقتله . ولكن مصعباً ذكّره بما كان يقول فى كتاب الله ورسوله من سيء القول وهجر الكلام . فضرب على بن أبى طالب عنقه ، ودعا الرسول ربه أن يغنى المقداد من فضله حيث أنه أسر النضر فخلّص المسلمين منه . وأما عقبة فقد قال عند ما أمر الرسول بقتله « ثمن للصبية يا محمد ؟ ! » قال « النار ! » ولم يلبث عاصم بن ثابت أن قتله فأمن المسلمون شره ونجوا من كيده . وقد قتل المسلمون الشاعر الذى من عليه رسول الله يوم بدر ، عند ما نقض عهده فحارب الرسول فى أحد ، فقد شاء الله أن يجعله أسيراً لهم .

وقد نزل بعد بدر قول الله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » يعلم ما يليق بكل حال . وهكذا يعاتب الله رسوله وأصحابه إذ فاداد أسراهم بالمال ولم يقتلوهم . والإسلام يومئذ ضعيف والمسلمون قلة . بينما الشرك وأهله فى قوة وكثرة ، فقتال المشركين — والحال هذه — أجدى على الإسلام من فدائهم بالمال ومن أجل هذا العتاب السماوى بكى الرسول وصاحبه أبو بكر . فلما رآهما عمر

يبكيان قال : « يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما » فقال عليه السلام « أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء . ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة وأشار عليه السلام إلى شجرة قريبة .

فلما عز الإسلام ، وقويت شوكته ، أنزل الله سبحانه قوله : « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منّاً بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » فأصبح النبى صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية مخيراً بين أمرين لا ثالث لهما ، وهما المن والفداء فظاهر الآية يمنع القتل بعد الأسر كما يذكر السيوطى فى أحكام القرآن .

ومن أجل ذلك قال ابن عمر للحجاج لما دفع إليه أحد الأسرى ليقتله : — ليس بهذا أمرنا إنما قال الله تعالى « فإما منّاً بعد وإما فداء » .

هل يستعان بغير المسلم ؟

لم يكن عليه السلام يأذن للمشرك بالقتال معه ، حتى يؤمن بالله ورسوله . فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « خرج النبى صلى الله عليه وسلم قبل بدر . فلما كان بحرة الوبرة (موضع على أربعة أميال من المدينة) أدركه رجل يذكر بالجرأة والنجدة ، ففرح به الأصحاب . فقال للنبى صلى الله عليه وسلم جئت لأتبعك وأصيب معك . فقال تؤمن بالله ورسوله ؟ قال لا قال فارجع ، فلن أستعين بمشرك ، ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم كالمرة الأولى ، ثم رجع فأدركنا بالبيداء فقال كالأول فقال له النبى صلى الله عليه وسلم تؤمن بالله ورسوله ؟ قال نعم ، فقال له انطلق » فالرسول صلى الله عليه وسلم قد رده مرتين لشركه ، حتى إذا أسلم فى الثالثة استعان به . والسر فى ذلك ما قدمت من حرص الحكومة الاسلامية الأولى على تطهير الجيش من تلك العناصر التي أن خرجت مع المسلمين ما زادتهم إلا خبالاً . فالمشرك إذا حارب فى صفوف المسلمين ، لا يفيدهم كثيراً إذ أن غايته فى أغلب الأحيان الكسب المادى .

والذى تحركه المادة ليس كالذى تحركه العقيدة والفكرة والمذهب فيقاتل من أجل هدف معنوى . فالأول يحارب ويرجو النجاة كى ينعم بما ينشد من المال ، فتراه فى قتاله جبانا حذراً ، لا ينصر من ضعف ولا يكثر من قلة . والثانى يحارب وهو حريص على الموت كل الحرص لأن موته لا يحول بينه وبين مايريد من حياة الفكرة التي يناضل من أجلها ، كما يحول موت صاحب الهدف

المادى بينه و بين ما يريد من المال والغنى . فتراه أشد الناس شجاعة و بسالة ، ينطلق كما ينطلق السهم قوياً مهلكا ، يعمل فى عدوه الضرب والطعن حتى يقتل أو يفر منه الموت الذى حرص عليه فتوهب له الحياة .

ثم إن المشرك عدو لدود للاسلام ، قد تحدثه نفسه بالكيد للمسلمين حين يكون الكيد أبلغ ما يكون أثراً ، وأكثر ما يكون مضاء . وهو عندما يدخل فى صفوف المسلمين مسلّحاً ، يكون أقدر مايكون على النيل منهم ، أو يكون نيله منهم أنكى بهم وأعظم خطراً . فلو حارب المسلمين من خرج معهم من المشركين وأهل النفاق لاضطربت صفوفهم بالفوضى ، ولكانوا لقمة سائغة فى جوف العدو . ومن أجل ذلك تعمد الجيوش المعاصرة إلى نفر من جنودها فتلبسهم لباس عدوها وتدفع بهم إلى صفوفه عن طريق الهابطات (الباراشوت) أو غير ذلك من الطرق . فما تكاد تبدأ الحرب حتى ينشر هذا النفر المتنكر ألوان الفوضى والاضطراب بين صفوف العدو الذى اطمئن إليه وظنه منه بما يجد من لباسه .

ولهذا كانت استعانة الرسول بالمشركين قاصرة على سلاح يستعيره أو حديث يستشف به منهم أمر عدوه ، إلى غير ذلك من وسائل العون التى لا تمكّن المشركين من المسلمين كما يمكنهم القتال فى صفوفهم . فقد استعان عليه السلام بسلاح صفوان بن أمية ودرعه يوم حنين وهو يومذاك على دين الشرك ، فأرسل إليه يقول « يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً . فقال صفوان أغصباً يا محمد ! قال بل عارية وهى مضمونة حتى نؤديها إليك. فقال صفوان ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح. كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل عيينه الخزاعى عيناً له إلى قريش يوم الحديبية فجاءه بخبرها . وكان

عيينة يوم بعثه رسول الله كافراً . ومن ذلك يستنتج ابن القيم « أن الاستعانة بالمشرك المأمون فى الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عيينة الخزاعى العين كان كافراً إذ ذاك . وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم » .

وأما أهل الكتاب فالاستعانة بأسلحتهم ، أو اتخاذهم عيوناً على أعداء المسلمين أولى من الأستعانة بالمشركين ، وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد حفر الخندق ، استعار من اليهود آلات الحفر ، والتحالف الحربى جائز معهم إذا جمعتهم مصالح مشتركة إلا أن يكون المسلمون فى غنى عن معونة غيرهم. فلقد حالف عليه السلام اليهود أول ماقدم المدينة فقال فى وثيقته « وإن بينهم النصر على من دهم يثرب » ولقد قدمنا القول عن ذلك فى الجزء الأول من الكتاب فقلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم « لم يكن يرى في المسلمين ـ أول عهدهم بالمدينة ـ من القوة مايمكنهم من القيام ، وحدهم فى وجه قريش ، فعقد هذه المحالفة الدفاعية بهذا النص من وثيقته كى يجد من ينصره على قريش أو غير قريش ممن يكيد له ويعاديه ، وقد ترك عليه السلام كلمة النصر عامة فى هذا النص كى تشمل المعاونة المادية إلى جانب المعاونة الحربية ، وقد جاء فى الوثيقة أيضاً « أن الرسول إذا دعا اليهود إلى صلح حليف للمسلمين فإنهم يصالحونه ، وإن اليهود إذا دعوا المسلمين إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين » وإنما فعل الرسول ذلك توثيقاً لعرى التضامن الحربى بين المسلمين واليهود ، وتأكيداً للوحدة التى أرادها لعناصر الأمة اليثربية ، وقد استثنى عليه السلام من هذا النص الأخير من حارب الدين ، فليس ينبغى للمسلمين أن يصالحوا من حارب دينهم ، بل ليس لليهود أن يصالحوا أعداء الإسلام ، ثم يدعوا المسلمين إلى مصالحة من صالحوا [1] » ولقد جاء فى وثيقته صلى الله عليه وسلم أيضاً « أن اليهود ينفقون مع المسلمين

(١) حكومة الرسول ، الجزء الأول ص ٤٩ .

ماداموا محاربين » وقد علقنا على هذا النص بقولنا « فإذا ضم الجيش معسكرين معسكراً للمسلمين وآخر لليهود ، كان على كل معسكر أن يتكفل بنفقاته ، فيبتاع الأسلحة ويطعم الجند من ماله الخاص ، أما أن ينفق المسلمون على اليهود إذا هم خرجوا معهم مقاتلين ، أو يظن اليهود أن نفقتهم واجبة على المسلمين بما خرجوا معهم لقتال عدوهم ، فذلك مانفاه الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا النص من وثيقته [1] ».

ولست أجد فيما بين يدى من مراجع نصاً صريحاً يثبت اشتراك اليهود مع المسلمين فى الحرب ، أو دعوة الرسول لهم إلى العمل بما نصت عليه الوثيقة من المعاهدة الدفاعية ، فلقد تبيَّنَ له صلى الله عليه وسلم من جدلهم بالباطل ومحاولتهم التفرقة بين المسلمين ماتنطوى عليه نفوسهم من حقد للإسلام ، فضمهم إلى قائمة الذين إذا خرجوا معه ما زادوه إلا خبالاً . وأكبر ظنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو قد وجد منهم موادعة وإخلاصاً لدعاهم إلى معونته يوم بدر . ومن هذا أرى أن الإسلام يجيز محالفة أهل الكتاب وطلب العون منهم ، متى أظهروا الود والإخلاص للمسلمين ، أما إذا تنكروا ، فلا خير فيهم . وإن اليهود الذين حالفهم الرسول هم اليهود الذين نكل بهم وأجلاهم لما أصروا على الكيد للاسلام والدس للمسلمين .

---

(١) حكومة الرسول ، الجزء الأول ، ص ٥٠

القوة المعنوية

ولقد حرص الإسلام على انتزاع عوامل الضعف من نفوس المسلمين حتى لا تذهب ريحهم أو تضعف شوكتهم ، وعوامل الضعف قد تأتى بعد النصر غروراً واستهتاراً ، كما تأتى بعد الهزيمة يأساً وقنوطاً ، وكلا الأمرين حاربته الحكومة الرشيدة أو حارب به الإسلام الحنيف بعبارة أدق .

فلقد انتصر المسلمون فى بدر وهم قلة . انتصروا على عدو يفوقهم عدداً وعدة ، ومثل هذا النصر قد يدفعهم إلى الاستهتار بعددهم والغرور بقوتهم ، وهذا ماأراد الله سبحانه أن ينتزعه من قلوبهم ، فذكرهم بالحقيقة الواقعة التى قد تغيب عن عقولهم . . ذكرهم بأن هذا النصر الذى أحرزوه إنما هو من عند الله لا من عند أنفسهم ، فنزل قوله الكريم : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ا وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ! » .

و يوم حنين إذ تسلل العجب إلى نفوس المسلمين وظنوا أنهم لا يغلبون من قلة ، فكان جزاؤهم الهزيمة النكراء ، ونزل القرآن الكريم ينتزع من نفوسهم هذا الغرور والاستهتار و يعاتبهم عليه ، وذلك قوله تعالى : « و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها . . . . »

ولئن كان الله سبحانه قد حارب الغرور والاستهتار فى نفوس عباده المحاربين ، لقد حاربت حكومة رسوله اليأس والقنوط فى نفوسهم أيضاً ، إيماناً منها بأثر القوة المعنوية فى تقرير مصير الحروب .

فلقد حدث أن هزم المسلمون فى أحد ، فازدادت قوة العدو المعنوية حتى لقد سارع شيخهم أبو سفيان ينادى بأعلى صوته « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل ! » وأخذ المسلمين شىء من الضعف ، وكاد يدب فى نفوسهم اليأس لولا حكمة الرسول وحسن سياسته ، فلقد أبى عليه السلام أن يبقى على نار الهزيمة لحظة واحدة ، فسارع إلى مطاردة أعدائه فى الغد من يوم أحد ، حتى إذا بلغ حمراء الأسد أوقد النار ثلاثة ليال متتابعة ، حتى فت فى عضد قريش ، فقنعت بالإياب وآثرت الانسحاب ، فعاد المسلمون إلى المدينة وقد غزوا قريشاً فخشيت بأسهم وانسحبت أمامهم ، وإنما هو يوم بيوم أحد ، أو أنها واحدة بواحدة والحرب سجال .

ولا شك أن هذه السياسة هى الحكمة بعينها . فلو أن الرسول عليه السلام قنع بهزيمة المسلمين يوم أحد ، لهبطت روحهم المعنوية إلى القاع بعد أن بلغت القمة أو كادت يوم بدر ، ولسمت روح العدو سمواً يزيدهم قوة و بأساً ، ولكنه صلى الله عليه وسلم رد المسلمين كثيراً من هيبتهم بموقفه الأخير فى غزوة حمراء الأسد ، فحفظ المسلمين قوة الروح وانتزع من نفوسهم عوامل اليأس .

ومثل هذا حدث بعد انسحاب المسلمين فى مؤته ، فلئن كان فى هذا الانسحاب المنظم مهارة وحذق ، لقد كان نوعاً من الهزيمة على كل حال ، ولم يكن فيه شىء من النصر والظفر . ومن أجل ذلك أخذ المسلمون يعيبون على خالد انسحابه قائلين « يافرار فررتم فى سبيل الله ! » فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن أرسل عمرو بن العاص على رأس جيش من المسلمين إلى الشام . ولم يلبث أن أمده بمدد من الصحابة على رأسه أبو عبيدة الجراح ،

فكانت غزوة ذات السلاسل ، تلك الغزوة التي أعادت للمسلمين هيبتهم عند حدود الشام ، وردت لهم اعتبارهم .

وليس أدل على حرص الإسلام الحنيف على تقوية الروح المعنوية فى نفوس المسلمين من هذه الآيات البينات التى كانت تنزل بين الحين والحين لتبث الحماسة وتثبت الأقدام ... وما ظنك بجيش من المؤمنين يسمع قول القوي العزيز : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، و إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » ثم ماظنك بجيش يسمع هذا القول الكريم « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق، واضربوا منهم كل بنان »

ان القلة الصابرة تغلب الكثرة الكافرة بإذن الله . . .

و إن الله مع الذين آمنوا فى حربهم ، يمدهم بملائكته و يرعاهم بتأييده ونصره و إنه سبحانه قد ألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فما يطيقون حرباً ولا قتالاً ! !

هذه المعانى تجعل الضعيف قوياً ، والقليل كثيراً ، والهالك مهلكاً ، واليائس مؤملاً . . وانها لتدفع المسلمين إلى الجهاد دفعاً قوياً شديداً ، فتجعل النصر والظفر حقيقة واقعة لا خيالاً طائراً . فلا إخال جيشاً يتمثل هذه المعانى الا وكان النصر حليفه مهما بلغ من القلة والضعف. ولقد آمن المسلمون بأثر القوة المعنوية فى التعجيل بالنصر ولو كان العدو أكثر منهم عدداً وعدة . فكان عبد الله بن رواحه يخطب جنده يوم موته قائلا قالته الخالدة : ـ « يا قوم ! والله ان التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ! ! فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور و إما شهادة . . . »

وخير ما كان يحمس المسلمين ويرفع من روحهم المعنوية تلك البيعات التى التى كانت تسبق القتال فى بعض الغزوات . فلقد كان عليه السلام يبايع المسلمين على الا يفروا ، كما كان يبايعهم على الموت فى سبيل الله فى بعض الأحيان . فقد بعث فى سنة الحديبية عثمان بن عفان ليفاوض قريشاً ويدعوهم إلى السلام ، ويؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ، إذ لم يقصد الرسول حرباً وإنما جاء ليعتمر . فلما عرض عليهم ذلك سألوه أن يطوف بالبيت إن شاء ، ولكنه رفض حتى يطوف رسول الله والمسلمون معه . فأقسمت قريش لتمنعن محمداً عن مكة عامه هذا . وطال حبل الحديث حتى أوجس المسلمون خيفة ، وظنوا ان قريشاً إنما فعلت بعثمان شراً . وبينما هم كذلك إذ بنبأ مقتل عثمان يطرق أذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيثور ويفور ، شأنه أمام كل غدر وخيانه ، لأنه لم يفعل برسل أعداء سوءا ولا شراً ، بل ردهم مكرمين كما جاؤا . فكيف يردون كرمه هذا مكراً وخداعاً ؟ !

لقد جاءه رسولا مسيلمة يشهدان ان مسيلمة رسول الله . وهذا كذب وافتراء على الله يأباه الرسول ، ولكنه كظم غيظه ، واسكن غضبه ، وقال للرجلين « لولا ان الرسل لا تقتل لضربت اعناقكما » وقد كان هذا هديه فى معاملة الرسل : يردهم آمنين مطمئنين ولو أغلظوا له القول فاسمعوه ما يكره . وهذا رسوله عثمان لا يسيء إلى قريش ، ولكن يقرّط آذانها بأحاديث السلم فتترامى انباء قتله إلى المسلمين . ولو صدقت هذه الشائعة لكانت كالطامة الكبرى على قريش . فقد غضب المسلمون لغضب الرسول . وكادت سيوفهم تقفز من غمادها عند ما قال لهم « لا نبرح حتى نناجز القوم » وعند ما جمعهم فبايعهم على الاّ يفروا حتى يستشهدوا . فقد بايعوه بقلوب ملؤها الإيمان ، ونفوس

تتوق إلى الموت فى سبيل الله . حتى لقد كان الواحد منهم يبايعه مرتين أو ثلاثة مرات فى أول القوم وأوسطهم وآخرهم كما فعل سلمة بن الأكوع . ولما تمت البيعة وضع الرسول إحدى يديه على الأخرى يريد أن يشرك عثمان فى بيعة الرضوان كأنما قد شهدها . وكادت نيران الحرب تشتعل لولا أن جاء عثمان إلى رسول الله فعلم المسلمون أنه لم يقتل ، وفى هذه البيعة نزل قول الله تعالى : ـ (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما) فأى فوز لهم بعد إذ رضى عنهم ربهم وأرضاهم ، فآتاهم من فضله جزاء بما أخلصوا لله ورسوله ، فتبايعوا على نصرة دينه .

ومن هذا التحمس الذى ملأ القوم نستطيع أن نلمس أثر الرسول و بيعاته فى نفوس الجند وروحهم المعنوية .

القوة المادية

ان من مزايا القرآن الكريم هذا الشمول الذى يجده القارىء فى آياته ، وهذا الخلود الذى يلمسه بين كلماته . فهو يأتى بالكلمة الواحدة تحسبها أول الأمر كغيرها من الكلمات ، فإذا تتابعت العصور ، وتطور الناس من حال إلى حال ، وجدتها أوسع من هذه العصور ومن تلكم التطورات .

أنظر يا أخى إلى كلمة القوة فى قوله تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أنظر كيف شملت ما عرفه الصحابة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من سيف ورمح ودرع ، وأنظر كيف شملت ما نعرفه اليوم من طائرة ودبابة وقنبلة ذرية ، لتعلم ان القرآن خالد لا يقف عند عصر ، وإنما يشمل العصور كلها ويسع التطورات جميعاً .

وأنظر إلى كلمة « الرمى » فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « ألا إن القوة الرمى » أنظر كيف يشمل الرمى بالسهام والنبال بالأمس ، وكيف يشمل الرمى بالقنابل اليوم ، تقذف بها الطائرة أو الدبابة أو الغواصة .

لقد لاءم الإسلام فكرة التطور كل الملاءمة . فكنت تسمع أبا بكر رضى الله عنه يقول لخالد بن الوليد « إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذى يقاتلونك به : السهم للسهم والرمح للرمح والسيف للسيف » فإذا كان الناس يقاتلون فى هذا العصر بالدبابة والطيارة ، فليس لنا أن نقاتلهم بالبندقية والسيارة . وإذا كانوا يزيدون بين الحين والحين من حجم الدبابة أو من سرعة الطيارة أو من قوة فتكهما ، فليس لنا أن نقاتلهم بطراز قديم أقل حجما أو سرعة أو فتكا . وإذا كانوا يعرفون القنبلة الذرية فليس لنا أن نقعد عن معرفة أسرارها ، بل علينا

أن نيسر للعلماء سبل البحث والإنتاج حتى نعرف مايعرفون ونبتكرما لايعرفون فلقد كان عليه السلام حريصاً على اتباع الوسائل الحربية التى يجهلها اعداؤه . فما كاد سلمان الفارسى يعرض عليه فكرة الخندق يوم الأحزاب حتى سارع إلى تنفيذها ، فكان يحفر بيده الكريمة مع أصحابه . والخندق إذ ذاك وسيلة مبتكرة . . . انها مكيدة ما كانت العرب تكيدها كما قال أبو سفيان « وفى ذلك أعظم دلالة على أن الممالك والدول التى لا تنسج على منوال مجاوريها فيما يتخذونه من الآلات الحربية ، والتراتيب العسكرية ، توشك أن تكون غنيمة لهم ولو بعد حين »(١) فالثابت أن فكرة الخندق خديعة فارسية نقلها سلمان إلى المسلمين .

وانظر يا أخى إلى الدعامة الأولى من دعائم البناء الحربى . . . أليست هى الحديد الذى قال فيه تعالى (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) ؟ إن الحديد الذى كانت تصنع منه الرماح بالأمس هو الحديد الذى تصنع منه اليوم الدبابة والطيارة ، فما أجمل الخلود فى كلمات القرآن . . . وما أجمل الخلود فى معانيه ؟ .

ان فى الأمر باعداد العدة لحكمة بالغة ، فإن من الناس من يظن أن الإيمان بالله دون اعداد العدة كفيل بالنصر ، وهذه هى الشعوذة التي لا نريدها . فاعداد العدة هو الأخذ باسباب النصر ، والأخذ بالأسباب من تمام التوكل . وهل يقعد هؤلاء عن طلب الرزق فى الدنيا ، وينظرون أن تمطرهم السماء ذهباً وفضة ، أم تمطرهم سخطاً من الله ؟ ! .

---

(١) الترتيب الادارية ، ج ١ ، ٣٧٧

لقد حرصت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم على إعداد العدة كل الحرص ، فكان عليه السلام يرسل البعثات العلمية لتعلم الصناعات الحربية . فقد جاء فى طبقات ابن سعد ان عروه بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يحضرا حصار الطائف ، إذ كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات . ولقد كان المنجنيق والدبابة أحدث وسائل القتال أيام رسول الله وأكثرها ندرة ومن أجل ذلك كان استعمالها يحتاج إلى مران حربى وحذق فنى لا يأتى بغير ارسال البعثات العلمية .

وليس أدل على نضج فكرة التسلح واعداد القوى الحربية من انهيار الدول الضعيفة أمام جحافل الالمان فى الحرب العالمية الثانية . فلو أن هذه الدول قد أعدت مثل ما أعد الالمان من قوى ، لما سمعنا عن انهيار فرنسا أو تسليم الجيش البلجيكى أو الهولندى مثلاً ، ولما سمعنا قول بيتان : — « اننا فى قلة من الجنود ، وقلة من الأسلحة ؛ ولذلك انهزمنا » .

وليس أدل على نضج هذه الفكرة أيضاً من هزيمة الألمان فى روسيا . فلو أن الروس استشعروا برد الراحة ، فأراحوا أنفسهم من عناء الجهد كما فعل الفرنسيون ، لخضعت بلادهم للالمان كما خضعت فرنسا ، ولكنهم لم يغفلوا عن أسلحتهم وعدتهم ، فمضوا فى سياسة التسلح ما وسعهم المضى ، حتى إذا هاجمهم الألمان لم نسمع عن انهيار مفاجىء أو استسلام ذليل ، بل سمعنا كيف ثارت « ستالينجراد » فطردت الالمان شر طردة ، وكيف توالت جهود الروس بعد ذلك حتى حفظوا لبلادهم حريتها وكرامتها .

وخير ما نرويه في هذا المقام ما كتبته المجلة الأوربية « پارى سوار » عن تسلح سويسرا قبل الحرب العالمية الثانية : — « لقد نشطت سويسرا فى تنظيم جيشها وحشد قواها وتعزيز جبهتها وزيادة مدة التدريب العسكرى بين أبنائها منذ سنة

١٩٣٦ ، و إذا كانت لم تفكر فيما مضي في إقامة المصانع الحربية ، فقد أصبح لديها الآن مئات من المصانع الحربية الكبيرة المعدة لهذا الغرض في أنحائها المختلفة . وقد أقيمت استحكامات عظيمة على طول خط الرين وبالقرب من الجهة الألمانية وتعد سويسرا الآن برنامجاً حربياً حافلا لحمايتها من الطوارىء المفاجئة ، ولكي تصل إلى هذه الغاية قررت سحب ٢٥ مليوناً أخري من المال الاحتياطي للاستمرار في عمليات التحصين والتسلح » ثم تعقب المجلة على هذا بقولها « فسويسرا لن تفقد استقلالها ، ولن تموت أبدا . و إذا كان الشعب السويسري لم يكن في تاريخه من الشعوب المتعطشة للحروب فليس هو كذلك بالشعب الذى يغتر بالسلم ! »

وهذه الجملة الأخيرة هي التي تهمنا ، فما كانت سويسرا أو غير سويسرا من دول أوربا المسيحية لتصل إلى فهم حقيقة السلام والعمل لها كما فهمها الإسلام . ولقد قدمنا القول عن حروب الرسول صلى الله عليه وسلم و بينا أنها كانت رداً للعدوان أو دفاعاً عن حرية العقيدة وتأميناً للدعوة إلى الله ، فإذا قيل كيف يدعو الإسلام إلى السلام و يأمر بالتسلح و إعداد العدة ، قلنا مثل ماقالته المجلة الأوروبية عن سويسرا « إن الإسلام و إن كان دين السلام ، فإنه لايأمن أعداءه فى فترة السلام » .

أن نزع السلاح أوتخفيضه فكرة جالت بخاطر طلاب السلام فى هذا العصر ولقد دفعهم إيمانهم بنضج هذه الفكرة إلى أن يضمنوها ميثاق هيئة الأمم ، فنصت المادة الثامنة على « أن صون السلام يقضى بتخفيض تسلح الدول إلى أدنى درجة تتفق مع سلامة الوطن والتمكن من الاشتراك فى تنفيذ الالتزامات الدولية ، وأن على المجلس أن يضع خطط هذا التخفيض بعد مراعاة الموقع الجغرافى والظروف الخاصة بكل دولة ، ثم يرسل هذه الخطط إلى الحكومات

المختلفة لفحصها وتنفيذها ، على أن تخضع هذه للتطور الطبعى ، فتعدل مرة كل عشر سنوات . وعلى الدول الاعضاء فى عصبة الأمم أن تتبادل كافة المعلومات الصريحة عن نظام تسليحها و برامج قواتها البرية والبحرية والجوية ، وعن حالة الصناعات التى تفيد الأغراض الحربية » ثم نصت المادة التاسعة على تأسيس لجنة دائمة ترشد المجلس عن كافة المسائل الحربية والتى تتعلق منها بتنفيذ المادتين الأولى والثامنة خاصة . ولا شك أن هناك عيوباً كثيرة لنظرية نزع السلاح أو تخفيضه .

فمهما حاولت العصبة فإنها لن تستطيع أن تضع يدها على التسلح المستتر فقد تستطيع الدولة أن تخفى بعض أنظمتهـا الحربية تحت ستار الالعاب الرياضية ، أو تخفى ميزانيتها الحربية بوضعها فى غير موضعها . ثم إن كثيراً من الدول ترفض مراقبة اللجنة التى أشارت إليها المادة التاسعة من ميثاق عصبة الأمم وتعد عملها هذا تدخلاً فى شئونها الداخلية كما يقول الـكونت شالويا رئيس مندوبى الوفد الإيطالى لدى عصبة الأمم ثم أن تخفيض التسلح إلى حد يتفق مع سلامة الوطن كما ينص الميثاق ، فيه تعارض ظاهر كما يقول فوشيل ، إذ أن سلامة الوطن تقتضى تجنيد جميع أبنائه والمضى فى سياسة التسلح الحربى إلى أبعد حد . فضلاً عن أن اتخاذ الظروف الخاصة بكل دولة أساساً لتحديد ما يلزمها من السلاح أمر لا يسهل تحقيقه من الناحية العملية ، فـكثيراً ما تبدو الدولة أخطار لا تتوقعها . ثم إن الدول التي غلبت على أمرها وجردت من أسلحتها فى معاهدة فرساى ، لن يهدأ لها بال حتي تنزع الدول أسلحتها مثل ما نزعت ، أو تجاريهم فى التسلح الحربى . وفى ذلك يقول الجنرال ولهلم جرونر وزير الدفاع الألمانى الذى عاصر العصبة :— « أن لألمانيا عين الحق الذى لغيرها من الدول سواء أكان باعتبار تأمين حدودها أو مطابقتها بنزع السلاح . وفى سنة ١٩١٩ أكدت لها الدول أنها ستقتدى بهـا

قريباً فى نزع سلاحها . ولا يخفى أن ألمانيا عضو فى عصبة الأمم . والمادة الثامنة من ميثاق العصبة تنص على الوعد بتأمين حدود جميع الدول التى هى عضو فى العصبة . ولذلك سيكون غرض ألمانيا فى مؤتمر نزع السلاح القادم ، الحصول على الضمانات بجعل الدول الأخرى تنزع سلاحها كما أرغمت ألمانيا على ذلك . فلا يباح لتلك الدول ما هو محرم على ألمانيا »

ومن أجل هذه العيوب الكثيرة أخفق طلاب السلام فى تحقيق غايتهم أو قل أخفقت الفكرة فى الوصول بهم إلى بغيتهم .

أن فكرة نزع السلاح أو تخفيضه لا تؤدى إلى السلام أبداً ، فالذى يحارب بدبابتين ، يستطيع أن يحارب بدبابة واحدة . والذى لا يملك سلاحاً ، يستطيع أن يحارب بيده . وإنما الذى يؤدى إلى السلام هو إشاعة فكرة الحب والود والأخاء بين بنى الإنسان ، وهذه هى المبادىء التى جاء بها الإسلام الحنيف . فهو لا يكنُّ لطائفة من الناس بغضاً أو عداء إلا إذا عادته وائتمرت به . . . . . إنه يدعو إلى التعارف بين الأمم والشعوب ، فينادى فى الناس بنداء الله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وهل يقوم الحب والود والأخاء بغير التعارف ، وهو اساس الحب والود ودعامة الأخاء ؟

إن الإسلام يدعو إلى السلام بين الناس ، فما يكاد اعداؤه يسألونه الصلح حتى يجد بين دستوره الحكيم هذه الآية الكريمة « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

أن الإسلام لا يفكر فى الاعتداء على مسالم أبدا ، وكيف يفكر والله يقول « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

أقسم لو أن هـذه المبادىء سادت بين أمم العالم أجمع لما سمعنا عن حروب مروعة أو غير مروعة ، ولعاش العالم فى سلام ووئام .

فتحقيق فكرة السلام لا يكون بنزع السلاح أو تخفيضه ، وإنما يكون بإشاعة فكرته بين الناس ، ومن أجل ذلك قال المستر ستودا مندوب اليابان لدى عصبة الأمم « إن مسأله نزع السلاح معقدة جداً وليس من السهل حلها ولا يجوز مطالبة أية دولة بنزع سلاحها ما لم تضمن سلامتها . وخير ضمان هو تربية الجنس البشرى على صفات ومبادىء ليست فيه الآن » .

ولقد ظهرت فى أفق السياسة العالمية جماعة من المصلحين آمنوا بأثر التربية فى إشاعة السلام العام . فتعرض بعضهم لهـذه الفكرة فى مؤتمر المعهد الدولى ومؤتمر التربية العالمى اللذين انعقدا فى جنيف بسويسرا سنة ١٩٢٩ . ونادوا بأن تمحوا الدول من كتب الطلاب ما يرمى إلى التفرقة بين الأمم ، أو يخالف مبادئ الصفاء والوئام وحب الإنسانية . كما قامت جماعة اكسفورد فى أمريكا داعية إلى ما سمته « التسلح الأدبى » فاخذت تدعو إلى « الطهارة المطلقة ، والأمانة المطلقة ، والغيرة المطلقة ، والحب المطلق » .

« ومهما يكن من شىء فإن دعاه السلام — كما يقول الدكتور بقطر — قد جلبوا على العالم الكارثة التى تراها تمثل على المسرح العالمى اليوم . فحركات السلام هـذه ظلت تبث فى النفوس الاطمئنان فى البلدان الديمقراطية فى الوقت الذى كانت فيه الدول الدكتاتورية تضرم نار الروح الحربية فى نفوس ابنائها » اهـ

ومن هنا يبدو لنا نضج نظرية السلام فى الإسلام ، فهى تقوم على دعامتين اثنتين : —

(أولها) إشاعة المبادىء الإنسانية التى يدعو إليها الإسلام .

(ثانيهما) اعداد القوة الحربية .

و إنَّ السر فى نضج النظرية الإسلامية يرجع إلى الجمع بين الدعامتين حتى تتحقق الدعامة الأولى . فليس من الحكمة أن نكف عن اعداد العدة متى بدأنا فى الدعوة إلى مبادىء السلام فندعوا إلى نزع السلاح أو تخفيضه قبل أن ننزع من قلوب الناس الاحقاد .

وليس بنزع السلاح بأس متى شاع بين الناس حب السلام على أن يكون هناك جيش دولى يحفظ السلام و يؤدب الخارجين عليه ، فلست أشك فى أن التسلح يثقل الدول بنفقات باهظة لو انفقتها فى اطعام الفقير وشفاء المريض وكساء العارى وتعليم الجاهل ، واصلاح المجتمع فى شتى نواحيه ، لكان خيراً لها .

وليس لنا أن نغفل الحديث عن أسلحة المسلمين فى عهد النبوة وقد تحدثنا عن القوة المادية . فلقد كان القوم يتخذون للحرب عدتها ، فيحتمون بالدرع ويتترسون بالترس ، و يلبسون الخوذة ، و يضربون بالسيف ، و يرمون بالقوس و يحملون الحربة والرمح ، و يركبون الفرس والبعير ، وكانت لهم اسلحة أخري قد لا يصدق القارىء أنهم عرفوها منذ مئات السنين ، فسبقوا المخترعين المحدثين إليها . فقد كانوا يعرفون الضبور ـ وهو صندوق من خشب غطاؤه الجلد ـ يكمنون فى جوفه فلا تصل إليهم حراب العدو ، ولا تعوق مسيرهم فيقدمون عليه بقذف النبال ورمى الأفواس ، وهم فى حمًى من أذاه وأمن من قذائفه ، وكان لهم سلاح آخر أشبه بالضبور ، يحتمون بداخله فينقبون الجدران و يقتحمون الحصون و يهزمون الأعداء .

وهذه الأسلحة هى صورة مصغرة لما نعرفه اليوم بالدبابة ، يحتمى الجند بحديدها ، و يطلقون نيرانها ، فيدكون الحصون ، و ينسفون الدور ، و يقتلون العدو

وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم المنجنيق يوم الطائف ، فقاتل به أهلها لأول مرة ، و إن أردنا وصفاً دقيقاً لحرب استعمل فيها المنجنيق إلى جانب الدبابة فلنقرأ ماجاء فى السيرة لابن هشام عن معركة الطائف بين رسول الله وثقيف : « ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنجنيق . . . . حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابه ، ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعناب ثقيف . . . . . » و إذا كان المنجنيق فيما نقل صاحب التراتيب الإدارية عن الخفاجى « آلة لرمى العدو بحجارة كبيرة بأن يشد سوار مرتفعة جداً من الخشب يوضع عليها مايراد رميه ثم تضرب سارية توصله لمكان بعيد جداً [1] » كانت هى الصورة المصغرة للمدافع الضخمة التى يستعملها الجند فى هذه الأيام عند مايريدون اقتحام مدينة محصنة .

---

(١) ص ٣٧٣

التدريب العسكري

وكانت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم تحث المسلمين على التدرب والمران الحربى ، فلقد خرج عليه السلام يوماً على نفر من أسلم ، فقال ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وإنا مع بنى فلان ، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال : مالكم لا ترمون ؟ ! فقالوا كيف نرمى وأنت معهم ، فقال : ارموا وإنا معكم كلكم » ولقد قال عليه السلام « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه المحتسب فى عمله الخير، والرامى له، والممد به ،فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل لهو باطل ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة ، تأديب الرجل فرسه ، ومداعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمى بعد ماعلمه فإنما هى نعمة كفرها » .

وإلى هذه السياسة الحكيمة تجنح الحكومات فى هذه الأيام ، إذ لا يقوم جيش قوم بغير المران الحربى ، وعلى قدر مران الجند يكون بلاؤهم فى الحرب ، والقلة التى أجادت التدريب تغلب الكثرة التى يعوزها المران ، ومن أجل ذلك جعل عليه السلام الرمى بالقوس والنبل وغير ذلك من أداة القتال حقاً ، وجعل مادونها من اللهو باطلا إلا ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، وتأديب الفرس يقابله اليوم المران بالطائرة والدبابة والغواصة والسيارة المصفحة ؛ فهى التى تقوم اليوم مقام الفرس فى الزمن الماضى . وإن هذا المران الحربي قد عده الرسول الكريم نعمة من عند الله ، إذ به تقوى الأمم بقوة جيوشها ، وإن تركه بعد معرفته كفر بهذه النعمة ، فلم يكن عليه السلام يريد أن يرى مؤمناً ينسى فنون القتال أو يترك المران عليها يوماً ، كى يبقى طيلة حياته أهلاً للجهاد فى سبيل الله ،

فلا يفقده الدين عند الحاجة ، وإنما يجده دائماً متى أراده أشد ما يكون حذقاً وأعظم ما يكون مرانا .

والرسول عليه السلام إذ يرمى مع ذلك النفر من أسلم وهو رئيس الحكومة وسيد الأمة ، بل وهو النبى الذى اصطفاه الله ليبلغ رسالته ، إنما يحث المسلمين على المران الحربى كل الحث ، ويكرّم هذا العمل كل التكريم ، كى يقبل عليه المسلمون إقبال من يريد الشرف و يبتغى به العزة والكرامة .

التجنيد الأجبارى

أوجبت حكومة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين أن ينفروا للجهاد إذا استنفرهم الإمام ، ولم تعف من القتال إلا من يعجز عنه ، فلقد روى أن الله سبحانه لما نزّل قوله الكريم « لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون . . » جاء ابن أم مكتوم الأعمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يارسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت فأنزل الله على رسوله قوله « غير أولى الضرر » ومن أجل ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فى إحدى غزواته « إن أقواماً بالمدينة خلفنا ماسلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر » ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم يقصد الذين يتمنون الجهاد من أولى الضرر كابن أم مكتوم مثلا ، أما الذين لا يحدثون أنفسهم منهم ، فأولئك لا يؤتون ثواب الذين حبسهم العذر ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى .

ولقد عدّ الله سبحانه الذين يعفون من الجهاد فى كتابه الكريم فقال : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ماينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله » والذين لا يجدون ماينفقون هم الذين لا يجدون مايعينهم على القتال فى سبيل الله من دابة يركبونها أو سلاح يجاهدون به العدو ، ولقد حدث فى غزوة تبوك أن قدم نفر من هؤلاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يجعلهم معه ، فاعتذر إذ لا يجد مايحملهم عليه ، فتولوا وقد أخذهم البكاء ، وفاضت أعينهم بالدمع إذ لم يشرفوا بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومثل هؤلاء كمثل ابن أم مكتوم الأعمى وغيره من أولى الضرر . فكلا الفريقين يودّ من كل قلبه لو يسرت له سبل الجهاد فى سبيل الله ، ولكن

ضعفاً فى الجسم أو ضيقاً فى ذات اليد يحول بينه و بين مايريد ، فتأبى الشريعة الغراء إلا أن تقف منهم موقفاً رحيماً كريماً ، فتعفيهم من القتال إلا أن يغنيهم الله من فضله مالا ، أو صحة وقوة ، ثم تكتب لهم ثواب المجاهدين وفضلهم ، فيقول الرسول الكريم « إن أقواماً بالمدينة خلفنا ماسلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر » وصدق رسول الله . . . فما يسلك المجاهدون شعباً ولا وادياً إلا و يتمنى الذين حبسهم العذر أن يجدوا فائضاً من مال ، أو بسطة فى جسم ، أو شفاء من مرض ، حتى يلحقوا بإخوانهم أشد ما يكونون فرحاً وسروراً ، وأكثر ما يكونون بطولة واستبسالا . . إنهم إذن مع المجاهدين بأرواحهم وقلوبهم ، ولو قدروا لكانوا معهم بالجسم والروح معاً ، فلا أقل من أن يجزيهم الله جزاء المجاهدين ، و ينجيهم من عذاب القاعدين .

وثمة فريق آخر من الناس أباحت لهم حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم التخلف عن الجهاد . وهؤلاء هم الأبناء الذين لا يجد آباؤهم غيرهم يبرهم و يرعاهم و يحسن إليهم فى ضعفهم وشيخوختهم . فلقد جاء رجل من اليمن ليجاهد مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى : هل لك أحد باليمن ؟ قال أبواى فقال : أذنا لك ؟ قال لا . قال ارجع إليهما فاستأذنهما ، فإن أذنا لك فجاهد و إلا فبرّهما وروى أن رجلا جاء إليه صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد فقال عليه السلام : ألك والدان ؟ قال الرجل : نعم . قال : ففيهما فجاهد » أى أحسن إليهما و برهما فذلك باب من أبواب الجهاد لا يقل شأناً عن جهاد الأعداء فى ميدان القتال . ولست أشك فى أن هذين الرجلين كانا وحيدى أبويهما ، فإنما أمرهما الرسول صلى الله عليه وسلم باستئذان الوالدين خشية ألا يجد الوالدان من يرعاهما . ومعنى ذلك أن ليس لوالدى الرجلين غيرهما ، و إلا لوجدا من يبرهما ، ولما أعفى الرسول الرجلين من جهاد الأعداء .

والذى يقرأ آية المعافاة من الجندية التى سجلناها آنفا ، يعلم أن فكرة التجنيد الإجبارى فكرة إسلامية خالصة . فالإسلام لا يعفى من الذكور أحداً غير ما قدمنا . ومن أجل ذلك يقول الشيخ محمود شلتوت « ولم ير القرآن أن منها ـ يقصد المعافاة من الجندية ـ حمل الشهادات العلمية ولا الانتساب إلى الجامعات ولا حفظ القرآن الكريم ولا دفع بدل نقدى ولا البنوة لحاكم كبر أو صغر مما عهدناه فى عصور الضعف والانحلال ، بل كان العمل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والعصور التالية له على عكس هذا وما كان التفكير فى جمع القرآن إلا مخافة أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة فى حرب اليمامة . وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً فى أن يستمر القتل فيهم » اهـ . ولقد كان عليه السلام يعد التخلف عن الجهاد أو التولى يوم الزحف بغير عذر كبيرة من الكبائر المهلكة . فلقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله وما هى ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » فانظر أى كبيرة يكون التولى يوم الزحف وقد قرنه الرسول صلى الله عليه وسلم بالشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق ! ؟ وكيف لا يقرن بهاتين الكبيرتين و إن فيه للهزيمة المحققة والخسران المبين . فما من جيش يتولى عنه جنوده إلا و يضيع ما يدافع عنه من دين أو وطن ، دون أن يريق عدوه قطرة من دم أو يبذل شيئاً من جهد . ومن أجل ذلك حض القرآن الكريم على الثبات عند اللقاء ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » كما حرم الفرار عند الزحف فقال : « يا أيها الذين آمنوا

إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ، فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »

ولقد حدث أن تخلفت طائفة من المسلمين عن القتال يوم تبوك ، فلما انتهى اليوم جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله، وكانوا بضعة وثمانين رجلا . وجاءه كعب بن مالك حتى جلس بين يديه وكان ممن تخلف ، فقال له ما خلفك ؟ ! ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال « بلى والله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً ولكنى والله لقد علمت إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به على ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه ، إنى لا أرجو فيه عفو الله عنى . والله ما كان لى من عذر. والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما هذا فقد صدق ، فقم حتي يقضى الله فيك » وفعل مثل فعلة كعب رجلان آخران هما مرارة بن الربيع العامرى وهلال ابن أمية الواقفى : تخلفا عن القتال وجاءا إلى رسول الله صادقين تائبين ، فقالا له مثل الذى قال كعب ، وقال لهما مثل الذى قاله لكعب . وهؤلاء الثلاثة قاطعهم رسول الله والمؤمنون ، وأمرهم عليه السلام ألا يقربوا أزواجهم حتى يقضى الله فيهم أمره . فظلوا كذلك خمسين يوماً لا يكلمهم أحد ، ولا يكلمون أحداً ، ولا يقربون أزواجهم ، حتى تاب الله عليهم فنزل قوله الكريم « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب

الرحيم » وإذ ذاك استنار وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لكأنه البدر ليلة تمامه ، وكانوا يجدون ذلك منه إذا سره أمر ، فقال كعب « إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله و إلى رسوله ، فقال عليه السلام : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، فقال فإني أمسك سهمي الذي بخيبر .

وروى عن ابن عباس أن سبعة ممن تخلفوا عن المسلمين في تبوك أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد اعترافا منهم بالذنب ، وإقراراً بالخطيئة ، وتكفيراً وتوبة ، فمر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآهم قال من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري ؟ قالوا هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله وأوثقوا أنفسهم حتى يطلقهم النبي صلى الله عليه وسلم و يعذرهم . فقال عليه السلام وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم . رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ! ! فأنزل الله عز وجل قوله « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إنه هو التواب الرحيم » فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم فجاؤوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، فأخذها عليه السلام لما أمره الله فقال « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

ومن هذا الذي قدمنا يتبين لنا أن التخلف عن الزحف كبيرة مهلكة ، كانت تغضب الرسول أشد الغضب حتى لقد قاطع أصحابها وحرم عليهم أزواجهم ، وقاطعهم المؤمنون فأشعروهم بالذلة والهوان ، حتى لقد قعد مرارة وهلال في بيتيهما يبكيان ، أما كعب فكان يطوف الأسواق فلا يكلمه أحد ، ويحيي ابن عمه وأقرب الناس إليه فلا يرد تحيته ، ويأتي رسول الله في المسجد فيسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، ثم يسأل نفسه أحرك رسول الله صلى الله

عليه وسلم شفتيه ليرد عليه السلام أم لا ؟ ثم يصلى قريباً منه فيسارقه النظر ، فإذا أقبل على صلاته أقبل إليه الرسول ، وإذا التفت نحوه أعرض عنه . ثم إنه صلى الله عليه وسلم أبى أن يطلق الذين أوثقوا أنفسهم بالسوارى حتى يكون الله هو الذى يطلقهم ، وقال غاضباً « رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ! ! »

والذى استنبطه مما قدمت أن المتخلف عن الغزو ممن لا عذر لهم ، يعاقب بالغرامة والحبس ، إذا صدق أولى الأمر وعلموا فيه خيراً .

فأما الغرامة فصدقة تطهرهم وتزكيهم وتكفر عن سيئاتهم ، وتنفض عنهم عار الفرار من سبيل الله . وهى عقوبة واجبة وجوب الفرائض فيما أرى ، إذ جاء الأمر بها صريحاً واضحاً « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

وأما الحبس فأصله من سنة رسول الله التقرير ، إذ أقر الذين أوثقوا أنفسهم بالسوارى على ما فعلوا ، مما يؤكد جواز حبس المتخلف إذا رأى الإمام ذلك . فالسارية كانت وسيلة للحبس فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن السجن بمعناه العصرى معروفاً يوم ذاك ، حتى أن رجلا من بنى حنيفة أريد حبسه ، وكانت خيول المسلمين التى بعثها الرسول إلى نجد قد جاءت به ، فربط إلى سارية من سوارى المسجد .

وأكبر ظنى أن الله سبحانه لو قد أراد ألا يشرع للناس حبس المتخلفين عن القتال بغير عذر ، لعجل من نزول آيات العفو والتوبة قبل أن يوثق هؤلاء السبعة أنفسهم ، أو لأوحى إلى رسوله فأطلقهم من أول الأمر .

ثم إن هجر الرسول والمؤمنين لكعب ومرارة وهلال ، والحيلولة بينهم و بين أزواجهم ، إنما هو الحبس بعينه فيما أرى هو الحبس كما كان يعرف الناس أيام رسول الله ، وقبل أن يعرفوا السجون التى تجمع المذنبين فى صعيد واحد ، فتحول بينهم و بين للناس .

فهجر المذنب أو حبسه شيئان متقاربان إن لم يكونا شيئاً واحداً .

فالذى يحبس لا يكلم الناس ولا يكلمه الناس ولا يقرب زوجه .

والذى يهجر لا يكلم الناس ولا يكلمه الناس ولا يقرب زوجه .

والذى يهجر تضيق عليه الأرض بما رحبت حتى كأنه فى السجن تماماً حتى لقد قال كعب يصف حاله وحال صاحبيه لما هجرهم المسلمون : « فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى الأرض فما هى بالتى أعرف ! ! »

ثم إن هذا الهجر هو الذى دفع مرارة وهلالا إلى بيتهما ، أى أن السجن المعنوى هو الذى دفعهم إلى السجن الحقيقى . والقصد من هذا الهجر أو الحبس هو التأديب والتهذيب ، الذى أراده الله لعباده المخلصين ، الذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، واعترفوا بخطاياهم ، وأقبلوا على الله تائبين منيبين .

فأما الذين لم يعترفوا بذنوبهم ، فجاؤا الرسول يعتذرون بالكذب والباطل ، فهؤلاء هم المنافقون الذين لم يلقوا هجراً ولا عتاباً ، ولو علم الله فيها خيراً لعجل لهم العتاب فى الدنيا كما عجل للثلاثة الذين صدقوا ولكنهم أهل النفاق والخيانة « لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » فحكومة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن تريد أن يضم جيشها أهل النفاق والخيانة والفتنة والخذلان ، بل كانت تحرص كل الحرص على أن تطهره منهم تطهيرا . ومن أجل ذلك كان يقال للرسول صلى الله عليه وسلم : إن فلانا قد تخلف ، فيقول « دعوه فان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » ...

النساء والحرب

ينبغى للباحث فى هذا الموضوع أن يفرق بين عصرين اثنين : العصر الذى سبق فرض الحجاب ، والعصر الذى تلاه ، إذ كان فرض الحجاب فى السنة الخامسة بداية لتطور شامل فى شتى نواحى المجتمع الإسلامى . وينبغى له أيضاً ألاَّ يتخذ ظاهر الأحاديث الشريفة حجة فيما يصدر من حكم أو ينادى به من رأى . فإن فهم الظروف التى أحاطت بكل حديث ، كفهم الحوادث التى نزلت من أجلها الآيات ، يعين على البحث والدرس ، ويغير كثيراً من المعنى الظاهرى . ومتى حكمنا حكماً يخضع للمبادىء العامة والقواعد الكلية التى جاء بها الإسلام فإنا لا نخطىء ، ولو كان هذا الحكم متعارضاً مع القواعد الفرعية والأحكام الجزئية التى تكيفها ظروف البيئة ، وطبيعة العصر ، فإن ذلك هو الاجتهاد الذى أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل للمخطىء فيه أجراً ، وللمصيب أجرين .

* * *

كان النساء يخرجن للقتال فى العصر الأول ، وكان عليه السلام يُقرهن ولا ينكر عليهن . فلقد حدَّث ابن هشام أن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية قالت :ـ خرجت أول النهار ـ تقصد يوم أحد ـ وأنا أنظر مايصنع الناس ومعي سقاء وفيه ماء فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى » فقالت لها امرأة كانت تستمع لها وتنظر إلى جرح من جراحها أجوف له غور « من أصابك بهذا ياخالة ؟ » قالت « ابن قمئة ـ أقماه الله ـ لما ولى الناس عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا . فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربنى هذه الضربة ولكن ، فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان » ولقد روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سلمة ، وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القِرَب على متونهما ثم تفرغانها فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم » .

ولما جرح الرسول صلى الله عليه وسلم فى يوم أحد ، أخذت فاطمة رضى الله عنها قطعة من الحصير ووضعتها على جرحه ، فاستمسك الدم بعد أن كان الماء لا يزيده إلا كثرة .

وكان لامرأة يقال لها رفيدة خيمة يوم الخندق ، فلما جرح سعد بن معاذ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجعلوه فى خيمة رفيدة » .

وهذه الحوادث كلها كانت فى العصر الأول كما قلت . فنحن إزاء نوعين من جهاد المرأة نذكرهما وننظر أثر الحجاب فيهما أو مقدار التطور الذى أصابهما فى العصر الثانى : —

(أولاً) القتال فى صفوف الرجال ، كما فعلت نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد، عندما اعترضت طريق ابن قمئة بين جمع ممن ثبت مع رسول الله من الرجال.

وهذا النوع من أنواع الجهاد لم نر له أثراً فى العصر الثانى ، لأن طبيعة الإسلام فى ذلك العصر تنكر اختلاط الجنسين ، ولو كان هذا الاختلاط فى بيت الله ، حيث تتجه القلوب إلى الله وتنسى مفاتن الدنيا ، فتقبل على الطاعة والعبادة خاشعة

خاضعة . ومن أجل ذلك لم يأذن عليه السلام باختلاط الجنسين فى حلقات العلم التى كان يعقدها فى المسجد بين الحين والحين ، بل كان يجعل للنساء يوما لايخالطهن فيه رجل ، ولهذا يفتى الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه ، بأن المرأة إذا وقفت فى صفوف الرجال تصلى ، بطلت صلاة من على يمينها ومن على شمالها ، ومن هو فى خلفها . والذى أؤكده الآن أن المرأة إذا خرجت إلى الميدان بنية القتال كان اختلاطها بالرجال أمراً مؤكداً ... إن لم يكن بالجيش المسلم ، فبمن تقاتل من جيش العدو . ومن أجل ذلك كان النساء إذا استأذنّ الرسول صلى الله عليه وسلم فى الجهاد سارعن يؤكدن أنهن لايبغين قتالاً ، وإنما تمريضاً وسقاية ...

فالإسلام لايأذن للمرأة فى القتال ، إلا إذا هاجمها العدو فى دارها أو حصنها كما فعلت صفية بنت عبد المطلب يوم حارب الرسول بنى قريظة ، فلقد تحصنت يومذاك مع حسان بن ثابت ، وجمع من النساء والصبيان . ولم يكن هناك من يدفع عنهم العدو إذا هاجمهم لأن المسلمين كانوا يحاربون ولا يستطيعون الرجوع إلى أهل الحصن إذا دهمهم أحد ، وبينما هم كذلك ، إذا بيهودي يطوف حول الحصن فتظن صفية به شراً ، وتقوم إلى حسان تدعوه إلى قتله ، ولكن حسان يتردد بعض الشىء ، فتأخذ هى عموداً ، وتنزل من الحصن ، وتضرب اليهودى بالعمود فتقتله .. وهذا الجهاد لاينهى عنه الإسلام ، بل يأمر المرأة به مالم تجد رجلا يدفع عنها العدو ، وخير لها أن تموت فى قتال العدو من أن تستسلم له . وليس فى هذا الجهاد خروج على طبيعة الإسلام فى فرض الحجاب والتفرقة بين الجنسين ، إذ أن المرأة لن تخرج إلى الميدان ، وإنما تقاتل عند دارها أو حصنها .

(ثانيا) تمريض الجرحى وخدمة الجند ، كما فعلت عائشة بنت أبى بكر وأم سلمة يوم أحد أيضاً . وقد بقى هذا الجهاد فى العصر الثانى . وإن كان الحجاب قد

أحاطه بشيء من الآداب وحد منه بما يلائم طبيعته . فلم نعد نسمع عن طواف النساء بين صفوف الجند ، وهن مشمرات يرى الناظر إليهن خدم سوقهن كما حدّث أنس عن عائشة وأم سلمة . ولعل خيمة رفيدة : يوم الخندق بداية التطور أو سلم الانتقال . فغزوة الخندق كانت فى آخر العصر الأول أو بين العصرين .

وتأكيداً للتطور الجديد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأم سنان الاسلمية بالخروج معه إلى خيبر ، على أن تكون مع أم سلمة تغرز السقاء وتداوى الجرحى وتعد الطعام ، وأم سلمة كانت يوم ذاك فى قبة ضربت لها ، فهى لا ترى رجلا ولا يراها رجل .

وأما ما قيل من أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر ست نسوة كن قد خرجن يداوين ويمرضن يوم خيبر بالانصراف ، فإنما كان ذلك لخروجهن دون اذنه وبغير أمره ، ومن أجل ذلك قال لهن غاضباً « ما أخرجكن وبأمر من خرجتن » ولو قد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينكر خروجهن لتمريض الجرحى ومداواة المرضى ، لما أذن لأم سنان وصواحبها بالخروج فقال لها : — « إن لك صواحب قد أذنت لهن . فكونى مع أم سلمة » وقد كان ذلك فى خيبر بعد فرض الحجاب .

وقد حدث يوم حنين ان جاءت كبشة القضاعية تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج كى تداوى الجرحى والمرضى ، فنهاها قائلا « لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن إجلسى » والذين يقفون عند ظاهر الحديث يقولون مقالة ابن حجر ، إن نهى الرسول كبشة ناسخ لاذنه لأم سنان . والواقع اننا لا نميل لهذا الرأى ، لأن خروج المرأة محجبة فى خيمة خلف صفوف الجند ، لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، الا من تداوى من الجرحى والمرضى ، لا ينافى طبيعة الإسلام أو طبيعة العصر الذى فرض فيه الحجاب .

فلننظر إذن إلى الحديث الشريف نظرة أعمق ، ولنحط بالظروف التى قيل فيها ، قبل أن نرى رأياً أو نصدر حكما .

إن المسلمين يوم حنين كانوا أكثر ما يكونون عدداً ، حتى لقد ظنوا أنهم لا يغلبون بعد يومهم ذاك من قلة ، ومن أجل ذلك دخلهم العجب ، وعاتبهم ربهم إذ أعجبتهم كثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئاً ! ولاشك فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يرى أمامه هذا العدد العديد من الرجال فانه لا يقبل امرأة ، إنما كان يقبل من قبل لقلة المؤمنين وكثرة العدد من قريش واليهود . فلم يكن بد من أن يلاقى العدو بأكبر عدد من الرجال . ولن يتيسر له ذلك إذا أعرض عن كل امرأة تأنيه لتكفى الرجال مئونة التمريض والمداواة والخدمة العامة فيفرغوا هم للقتال .

ولعل فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لولا أن تكون سنة . . . » ما يبين لنا قصده الكريم . فلقد كان عليه السلام يخشى أن يكون خروج النساء طريقة متبعة وسنة مؤكدة . فلا يخرج جيش دون أن يصحب معه فرقة منهن ولو كان غنيا بالرجال . فأراد عليه السلام أن يشرع للجيش الخروج دون نساء كما شرع له من قبل الخروج بالنساء .

فالقاعدة العامة أو المبدأ الكلى فى هذا المقام أن نهىء للنساء الحجاب ، وان نمنع اختلاطهن بالرجال . فأما ان يخرجن للتمريض واعداد الطعام وما شابه ذلك أو لا يخرجن فتلك قاعدة فرعية تختلف باختلاف العصور والأحوال . فقد نجد فى معركة نقصاً فى رجالنا ، فلا نزيد النقص بأن نفرض على فريق منهم مداواة الجرحى واعداد الطعام . وإنما ندفع بهؤلاء إلى صفوف القتال ، ونأتي بالنساء من خلف الصفوف يمرضن ويداوين وقد تحلين بالحجاب ، وأعدت لهن

خيام أو مبانى تليها السيارات أو الطائرات أو غير ذلك من وسائل الانقاذ التى تمكنهن من النجاة إذا اخترق العدو صفوف المقاتلين . وقد نجد فى وقت آخر كثرة فى الرجال ، فلا نأذن للنساء . ولن يحول قعودهن دون ان ينلن شرف الجهاد ، فلقد روى ان اسماء بنت يزيد جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : — بأبى أنت وأمى يارسول الله إنى وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك للرجال والنساء كافة فآمنا بك و بالهك. انا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم حاملات أولادكم . وانكم معاشر الرجال فضلتم بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل ذلك كله الجهاد فى سبيل الله عز وجل . وان أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم ، ور بينا لكم أولادكم ، أفنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟ » فالتفت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال : هل سمعتم مسألة امرأة قط ، أحسن من مسألتها فى أمر دينها من هذه ؟ قالوا يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى هذا . فقال عليه السلام لاسماء : افهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك من النساء ان حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله »

ولقد رأينا النساء بعد حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم يشاركن فى الجهاد بما يلائم طبيعتهن كما كن يشاركن حكومته . فلقد حدّث الطبرى أن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعى قالت « شهدنا القادسية مع سعد — تقصد القائد ابن أبى وقاص — مع أزواجنا ، فلما اتانا ان قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا الهراوى ، ثم اتينا القتلى . فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نواليهم ذلك ونصرفهم به »

وهذا يؤكد ماقدمناه من جواز خروج المرأة للتمريض والخدمة العامة عندما يشتد خطر المعارك كما اشتد يوم القادسية ، فتشتد الحاجة إلى جهود الرجال فى صفوف القتال و إذا تأملنا قول أم كثير « فشددنا علينا ثيابنا » تبين لنا الحرص على الحجاب ، وقولها فلما اتانا ان قد فرغ من الناس » ثم قولها « وتبعنا الصبيان » علمنا انهن قمن بعملهن بعد أن أنصرف الرجال من صفوف القتال ، فلم يكنّ معهنّ الا الصبيان ، ولم يكنّ يخالطن الرجال .

الجاسوسية

كان عليه السلام يهتم باقتفاء أخبار العدو ومعرفة أسرارهم واستطلاع خباياهم فكان يبعث العيون ليأتوه بخبرهم ، فقد أرسل عبد الله بن جحش سنة اثنين للهجرة فى اثنى عشر مهاجراً بعد أن دفع إليه كتاباً أمره الاَّ ينظر فيه حتى يسير يومين . فلما مضى اليومان نظر عبد الله فى كتاب رسول الله ، فإذا فيه « إذا نظرت إلى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » كما أن الرسول عند ما علم بعير أبى سفيان تحمل خيرات قريش كلها إلى الشام أمر نفراً من المسلمين أن يخرجوا إليها لعل الله أن يجعلها لهم . فلما اقتربوا من الصفراء بعثوا بسيس بن عمرو وعدى بن الرعباء إلى بدر يستطلعان أخبار العير . وقد ذهب رجلان من المسلمين إلى بدر يستقيان و يتنطسان الأخبار . و بينما هما كذلك إذ بجارية تطالب أخرى بدين عليها ، فتجيبها صاحبتها أن سوف تعطيها الذى لها عند ما تأتى العير فى الغد أو بعد الغد ، فتعمل لهم ، وتؤجر منهم . فيسرع الرجلان إلى رسول الله يخبرانه بيوم قدوم العير . ثم إن الجمعين لما قاربا بدراً وتسابقا إلى الماء ، بعث الرسول علياً وسعداً والزبير إلى بدر يتجسسون . فجاؤه بعبدين لقريش وهو قائم يصلى . فلما انتهى من صلاته سألهما عن مكان قريش . فقالا « وراء هذا الكثيب » ثم قال لهما « كم القوم ؟ » فقالا « لاعلم لنا » فقال « كم ينحرون كل يوم ؟ » فقالا « يوماً عشراً و يوماً تسعاً » فقال صلى الله عليه وسلم « القوم مابين تسعمائة والف » ثم قال لهما « فمن فيهم من اشراف قريش ؟ » قالا

« عتبه بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحرث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنفر بن الحرث ، وزمعه بن الاسود وأبو جهل بن هشام ، وأميـة بن خلف ، ونبيه ومنبه إبنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبدود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .

وفى غزوة أحد بعث الرسول أنساً ومؤنساً ابنى فضاله يلتمسان قريشاً . فعلما أنها قاربت المدينة ، واخبرا الرسول بذلك . و بعث من بعدهما الحباب بن المنذر فأتاه بخبرها . ولم يلبث أن خرج سَلَمه بن سلامه فرأى قريشاً تسرع بخيلها حتى لتكاد تدخل المدينة ، فرجع إلى القوم يحدثهم بما رأى .

وفى غزوة المريسيع عند ما علم الرسول أن الحرث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق خرج فى قومه ليحارب المسلمين ، ارسل بريدة بن الحصيب الأسلمى يتأكد له الأمر . فلما لقى الحرث وعلم اخباره ، رجع إلى رسول الله يقص عليه ما سمع . فما كان من رسول الله إلا أن ندب المسلمين للقاء بنى المصطلق .

وفى غزوة الخندق عندما علم الرسول أن قريظة قد نقضت عهدها وانضمت إلى حيي بن اخطب عدو الله ورسوله ارسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله ابن رواحة وخوات بن جبير ليعلموا أمر قريظة ويروا أن كانت على عهدها مع رسول الله أم خرجت عليـه . فلما سأل هؤلاء كعب بن أسد وقال لهم « لاعهد بيننا و بين محمد ولا عقد » انصرفوا إلى رسول الله يخبرونه .

وفى سنة ست من الهجرة قبل صلح الحديبية أو عهدها بعث الرسول عدة سرايا كان منها سرية عكاشة بن محصن الأزدى الذى خرج فى أربعين رجلا إلى الغمر . وقد أرسل هؤلاء الطلائع ـ جرياً على سنة رسول الله ـ فوجدوا من

دهم على ماشية أعدائهم فغنموا مائتى بعير ساقوها إلى المدينة . وعند ما خرج الرسول ليعتمر — عمرة الحديبية — فى ألف و بضع مئات من أصحابه و بلغ ذا الحليفة ، بعث عيناً له يستطلع فلما اقترب الرسول من عسفان أتاه عينه فسأله عما جاء به من أخبار قريش فقال له الرجل « قد سمعت بمسيرك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم » وقبيل يوم حنين بعث عليه السلام عبد الله ابن أبى حدرد الأسلمى وأمره أن يدخل فى صفوف عدوه فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق ابن أبى حدرد حتى دخل فيهم وسمع منهم ما أجمعوا عليه من حرب المسلمين ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر .

وقد كان المنافقون بالمدينة سماعين لقريش بمكة كما كانت قريش تحرص على استطلاع أخبار المسلمين كحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على استطلاع خبرها ، و إن كان حرصه — عليه السلام — وسيلة يدفع بها غائلة عدو أخرجه من داره وماله بغير الحق ، ثم أخذ يتربص به الدوائر و يبيت له بليل ، فأما حرص قريش فكان وسيلة تؤكد بها سياسة العدوان التى بدأتها بمكة ، ومن أجل ذلك كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم موقف حازم ازاء من يحس عليه .

فقد ثبت أنه قتل جاسوساً مشركا . إلا أنه لم يقتل حاطباً بن أبى بلتعة بعد ان كاد يخبر قريشا بمسير رسول الله إليهم ، لأنه كان من أهل بدر . وقصة ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تجهز لفتح مكة ، سارع حاطب يكتب كتاباً يقول « من حاطب بن أبى بلتعه إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم » وأرسل الكتاب مع امرأة ، فجعلته فى قرون في رأسها . و إذ ذاك أوحى الله إلى رسوله بما فعل حاطب ، فأرسل عليه السلام

علياً والزبير وقال لهما انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب إلى قريش فلما بلغا المرأة أخذا منها الكتاب وأتيا به رسول الله ، فاستدعى حاطباً وسأله الأمر فقال « لا تعجل علي يارسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدلت ، ولكني كنت أمرأ ملصقاً في قريش لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد . وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي » فقال عمر بن الخطاب « دعني يارسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — « أنه قد شهد بدراً ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فقال عمر وقد ترقرقت عيناه بالدموع « الله ورسوله أعلم »

وقد اجتهد الفقهاء في هذه القصة يريدون أن يستخرجوا منها حكماً على الجاسوس المسلم ، فاختلفوا في آرائهم . فقال فريق منهم بالعفو عنه لأن الرسول لم يعاقب حاطباً ، ولم يأمر بقتله . وقال فريق آخر بوجوب قتله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أنما نهى عن قتل حاطب لظروف خاصة لا تتوفر في غير عصر النبوة ، وهي شهود غزوة بدر الكبرى . ويرى مالك رحمه الله هذا الرأي . ويرى الشافعي وأحمد وأبو حنيفة الرأي الأول . ونحن أميل إلى رأي مالك رحمه الله في وجوب قتل الجاسوس المسلم ، إلا أن تكون له مثل سابقة حاطب في الإخلاص لله ورسوله . وإن كان هذا الإخلاص أمراً نادراً ، فإنه ليس بممتنع . ومن أجل ذلك نميل كل الميل إلى ما رآه ابن القيم من أن قتل الجاسوس راجع إلى رأي الإمام ، فإن رأى الإمام في قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وإن كان بقاؤه أصلح استبقاه .

وليس لنا أن نعيب نظام التجسس ، لأن التجسس وسيلة من وسائل الحرب كالخدعة تماما . وهو ليس أقبح من الحرب التي هى أصله وسببه . وإذا كنا لا نعيب على الإسلام حروبه ، لأنه لا يبدأ بها . وإنما يضطر إليها دفاعاً عن حرية العقيدة أو إصلاحاً للبغاة وردعاً للمعتدين ، فليس لنا أن نعيب عليه أخذه بنظام التجسس ، الذى نعده ضرورة من ضرورات الحرب كما أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . فليس للمحارب أن يغفل أمر عدوه فلا ينظر ما يدبر له فى الخفاء بل عليه أن يحذر ألاعيبهم و يحبط مؤامراتهم و يأخذ نفسه بأسباب الحيطه والحرص . والجاسوس إذا تبع الدولة المعتدية عدّ عمله نوعاً من الاعتداء والبدء بالحرب . فإذا كان تابعاً للدولة المعتدى عليها عد عمله نوعاً من الدفاع عن النفس ومن ثم يتبين لنا أن عمل الجاسوس المسلم لم يكن كعمل الجاسوس المشترك .

والذى نعيبه فى نظام التجسس عامة ما تلجأ إليه الدول فى العصر الحديث من اقحام النساء فيه اقحاماً يضيع العرض و يذهب بالشرف و يهدر العفة والكرامة فكم زخرت قوائم الجاسوسية فى الحرب العالمية الأولى بأسماء النسوة الساقطات اللاتى بعن العرض والشرف لقاء الجس واستطلاع الأخبار ، فراقصن القادة وصاحبن الجند واستدرجن فى الحديث . ومع أن طريقتهم أصبحت مفتضحة بعد الحرب العالمية الأولى ، فلم يبق قائد أو جندى يثق فى امرأة تسأله عن أخبار الجيش ، ولم يبق مسئول من رجال الجيش يحمل خطط هجومه فى جيبه ، أو يترك الوثائق السرية فى غرفته ، إلا أن الدول لم تر فى ذلك كله مبرراً للاستغناء عن جهود المرأة فى حقل الجاسوسية ، فزخرت قوائم الجاسوسية فى الحرب العالمية الثانية كما زخرت فى الحرب العالمية الأولى بأسماء الساقطات من بائعات العرض والشرف . واشتهر منهن « غريتا كاينن » فى فنلندا و« هيلفيع دلبو » فى الدينمارك

و « روث كون » فى بيرل هار بو . ولا عجب أن تكون هذه سياسة قوم لا يفهمون الشرف الإنسانى ، فهم ينكثون العهد ، و يضحون بالعرض، ولا تأخذهم بمن يحار بون من الناس رأفة ولا رحمة . أى فرق هذا الذى نراه بين تعاليم الاسلام و بين أخلاق العالم فى عصر العلم والمدنية !

العالم اليوم يضحى بالعرض من أجل الحرب !

والإسلام يحارب من أجل العرض !

فما أبعد الفرق ، ثم ما أبعد الفرق !

يرحم الله المعتصم يوم نادته امرأة مسلمة أذلها سيدها الرومى فى ناحية من نواحى عمورية . فما كاد يبلغه نداؤها « وامعتصماه ! وامعتصماه ! » حتى أجابها « لبيك لبيك ! ثم لبيك لبيك ! » وسارع فى اثنى عشر فارس إلى عمورية فغزاها و إلى المرأة فحررها ، و إلى الرومى فأذله لها . وكان المنجمون يقولون إن عمورية لا تفتح حتى ينضج التين والعنب صيفاً ، فلم يسمع لقولهم ، وهاجمها ساعة بلغها شتاء ، فامتدحه أبو تمام قائلا :

السيف أصدق انباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهنّ جلاء الشك والريب

أبقت بنى الأصفر المراص كاسمهم ... صفر الوجوه وجلّت أوجه العرب

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت ... جلودهم قبل نضج التين والعنب !

الحرب خدعة

ولم تكن الحرب تخلو من دهاء وخدعة ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد بلداً أوهم أعداءه أنه يقصد غيره . ففى غزوة حنين كان يسأل عن طريق نجد ومياهها وعمن بها من العدو ليشعر القوم أنه لا يريد حنيناً . وهذه خطة طالما سمعناها عن قواد الحرب فى هذا العصر فأثنينا عليهم الثناء كله . ولبست الحرب العظمى والحرب الأخيرة ببعيدتين عنا ، فكم كنا نسمع بالمناورات الحربية من المدافع وقذف القنابل ، إلى إعداد العدد وتعبئة الجند فى ناحية من نواحى إنجلترا أو ألمانيا . وكنا بعد قليل من التفكير نظن أن الحرب سوف توقد نيرانها فى بلد ما تجاه تلك الناحية . كما كان العدو يلتقى معنا فيما نظن فيخدع كما خدعنا ، إذ لا يلبث أن يجد الحرب قد نشبت فى غير هذا البلد الذى أعد العدة لحمايته فما نام الليل وما هدأ النهار . وتكون النتيجة المنطقية لهذه الخطة الخادعة أن تفتح البلدة التى قصدت وخدع أصحابها فأوهموا أن أعداءهم يريدون غيرها من البلدان إذ لم يحصنوها مثل ما يحصنون غيرها ، بل ربما سحبوا قواهم التى بها إلى هذه البلدة التى يظنون أن العدو يريدها لما يرون من مناوراته فى هذه الناحية التى تقع تجاهها . ونظرة واحدة إلى القادة المحدثين فى هذا العصر ثم إلى قائد المسلمين فى عصرهم الأول تكفى لتثبت أنهم أخذوا عنه بعض ما أدهشونا به ، أو أنه سبقهم إلى ما يظن بعض من جهل أنهم استحدثوه .

ولقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنفر الذين ندبهم لقتل كعب بن الأشرف فى أن يقولوا ما يشاؤن من كلام يخدعونه به ، فقد اشتد فى إيذاء

رسول الله وأصحابه ، فكان يهجوهم فى أشعاره ويشبب بنسائهم ، وينقض ما عاهد الرسول عليه ، ويأتمر بقتله ، ويؤلب عليه كما فعل بعد غزوة بدر ، مما أغضب الرسول وجعله يقول « من لكعب بن أشرف فإنه قد آذى الله ورسوله » وما أن قالها حتى سارع محمد بن سلمة وعباد بن بشر وسلكان بن سلامة والحرث بن أوس وأبو عيسى بن حبر إلى كعب بن الأشرف . فلما جاؤه تقدم له أخوه من الرضاع سلكان فأظهر له انحرافه عن رسول الله وخروجه عليه وشكا إليه الجوع والفقر وسأله أن يبيعه وأصحابه طعاماً بعد أن يرهنوه أسلحتهم ، فقبل . وسارع سلكان إلى أصحابه يخبرهم ، فانتظروا كعباً حتى خرج إليهم من حصنه ، فقتلوه بسيوفهم وأقر الرسول مقتله . وقد عد بعض المستشرقين هذا الأمر غدراً وخيانة ! وهم بهذا الزور والبهتان إنما يكشفون عن حقدهم وغيظهم فما عرف الإسلام يوماً الغدر ولكنه عرف كيف يؤدب الغادر ، فإذا استقام كان بها ، وإلا فلا حياة له . وهذا رجل هجا وعاب ، ونقض وتآمر ، وغدر وخان ، ولا يستحى أبدا ! فإن أبقت عليه أمة ، ولم تقتص منه فسوف يجعل أهلها شيعاً ويعيث فى الأرض فساداً . وإن اجتثته كما تجتث الأشواك ، فسوف تحيا آمنة مطمئنة لا تخشى غدراً ولا شراً . فمثله كمثل الشجرة الخبيثة التى لا تظل ولا تثمر وإنما تحوى بين أخشاب أغصانها الحيات والعقارب والفئران . فهى لا تنفع الناس ولا تنجيهم من شر ما فيها . ولا خير إلا فى إزالتها من فوق الأرض فالرسول صلى الله عليه وسلم إذ أشار بقتل كعب بن الأشرف لم يخرج عما تمليه الحكمة والحرص . ثم إن أمامنا أمراً آخر لا نذكره لندفع افتراءات المستشرقين فما قدمناه كاف لأن يلجم ألسنتهم ويسكتهم عن مثل هذه الأقوال ، وإنما نذكره لأنه أمس بموضوعنا الذى نتحدث عنه : فقد نسوا — هداهم الله — أن

الخدعة من أسلحة الحرب التى أقرتهـا الأمم جميعاً ، ولم تحرمها كما حرمت الغازات السامة فى العصر الحاضر ، وكما سوف تحرم القنبلة الذرية إذا شاء الله . فهى ضرورة من ضرورات الحرب لا مناص منها لمن أراد النصر والغلبة. والرسول عند ما ندب الناس لقتل كعب كان فى وقت حرب وقتال إن لم يكن متصلا فإنما هو سلسلة من الغزوات بين كل واحدة والأخرى فترة استعداد . وقد كان مقتل كعب بن الأشرف بين بدر وأحد فى وقت يريد الرسول أن يتأهب فيه لحرب قادمة قد يشنها عدوه الموتور . وقد كان كعب يؤلب العرب على رسول الله بعد بدر ، فكأنما هو يحاربه أو يعد العدة لحربه . فالرسول إذ يأمر الناس بقتله إنما يبتدر عدواً له بالهجوم بعد إذ وثق من إصراره على حربه، شأنه فى بعض غزواته وحروبه . ولا يعاب عليه إذا قال لأصحابه اخدعوا كعبا ما دام فى حرب أو قتال .

وفى غزوة الخندق جاء نعيم بن مسعود رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « إنى قد أسلمت و إن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت » فقال رسول الله له « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » فذهب نعيم إلى بنى قريظة ، وكان عشيراً لهم فى الجاهلية فدخل عليهم ولما يعلموا بإسلامه وقال لهم « يا بنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة مابينى و بينكم » قالوا « صدقت لست عندنا بمتهم »فقال لهم « إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره . و إن قريشاً وغطفان قد جاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه . وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره . فليسوا كأنتم ! فإن رأوا نهزة أصابوها ، و إن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم و بين الرجل ببلدكم ولا

طاقة لـكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لـكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه » فقالوا له « لقد أشرت بالرأى » ثم مضى إلى قريش فقال لهم « قد عرفتم ودى لـكم وفراق محمداً و إنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحاً لـكم فاكتموا عنى » قالوا « نفعل » قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم و بين محمـد وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا . فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالـكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً ! » ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم ما قال لقريش . وفي ليلة السبت من شوال سنة خمس بعثت قريش وغطفان إلى بنى قريظة يدعونهـا إلى قتال محمد . فاعتذرت قريظة بأن اليوم يوم سبت حيث لا يعملون احتراما لشعائرهم ، ثم قالت « ولسنا مع ذلك بمقاتلى محمد حتى تعطونا رهنا من رجالـكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه » واعتقدت قريش وغطفان بعد إذ سمعتا قول قريظة أن ابن مسعود صـادق فى قوله مخلص فى نصحه . وأرسلتا إلى قريظة تقول « إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا . فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا » واعتقدت قريظة بعد أن سمعت قول قريش أن ابن مسعود صادق فى قوله مخلص فى نصحه . وامتنعت عن القتال فخذل الله بينهم وفرق جمعهم ثم أرسل الريح والمطر ، والرعد والبرق ، وقذف فى قلوب الذين كفروا الرعب فولوا الأدبار .

فالخدعة من نظم الحرب فى حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد حث الرسول عليها حيث لا يصلح غيرها ، أو حيث تجدي هى أكثر من غيرها . فرجل مثل كعب بن الأشرف ، كيف تصل إليه الرماح وقد تحصن بعد أن أهدر الرسول دمه ، فأصبح طريد المسلمين ؟ هل غير الخدعة طريق إلى استدراجه والقضاء عليه ؟ ! ورجل كنعيم بن مسعود ، ماذا عساه أن يفعل أمام الأحزاب مجتمعة وهو رجل واحد لا عون له ؟ هل غير الخدعة طريق إلى حربهم ؟ .

لا شك أنها إن لم تكن السلاح الوحيد الذى يصيب الهدف حيث أشار بها الرسول ، فهى خير سلاح يصيب ذلك الهدف .

الحرب الاقتصادية

وهذا النوع من أنواع الحروب عرفته الحكومة الإسلامية الأولى كما يعرفه الناس فى هذه الأيام . و إن ذلك ليتجلى فى غزوة بدر الكبرى . تلك الغزة التى بدأت بمحاولة بذلها المسلمون ليصادروا تجارة قريش ، فقد خرج أبو سفيان فى عير لقريش يبغى تجارة فى الشام . فلما علم الرسول بهذه العير تحمل خيرات قريش كلها أمر نفراً من المسلمين أن يخرجوا إليها لعل الله يجعلها لهم ، فتصاب قريش فى مصالحها الاقتصادية ، وتضطر إلى الاذعان لما يرجوه المسلمون من إفساح سبيل الدعوة إلى الله . ولكن أبا سفيان سارع فغير طريقه وساحل البحر فنجا بالعير . ومن العجب أن يطلع علينا بعض كتاب أوروبا بما يشف عما تخفيه قلوبهم من تعصب أعمى لدينهم ، وحقد دفين للاسلام ، فهم يسمون هذه السرايا قطعاً للطريق ، ولو أنصفوا لقالوا إنها هى حرب المصادرة التى أقرها القانون الدولى وعرفتها الحروب الحديثة سلاحاً من أشد أسلحة الحرب مضاء وقوة ، ومن أقلها ضرراً بالنفوس و إزهاقاً للارواح . وهذه مجلة «تروث» اللندنية تحدثنا عن هذا النوع من أنواع الحروب فتقول : « إن الحرب الحديثة حرب مصادرات وتضييق ، فالجانب الذى يتغلب على الآخر فى مصادرة بضائعه هو الذى يكسب الحرب ! إن الحصار البحرى فضلا عن إنه سلاح ناجح ، قد قل بواسطته عدد القتلى فى الحروب ، فإذا أخفق فى مهمته لم تكن الخسارة بالشىء الذى لا يحتمله المحاربون ، وقد جعلت البحرية البريطانية من همها أن يقل عدد السفن التجارية التى تغرق فى عرض البحار ، إن الحصار البحرى الناجح

ـ مع ماله من قوة ـ لا يحتاج فى تنفيذه إلى شىء من العنف ، فقد تقضى السفن الحربية مدة الحرب جميعها دون أن تسمع كلمة « ارفع البندقية وكن مستعداً » وقد بلغنا عن طريق الأسر ومصادرة السفن ضعف ما بلغه عدونا بإغراق السفن بواسطة « الغواصات » . فالحصار البحرى ـ وهو سلاحنا فى الحرب ـ هو أقوى الأسلحة وأكثرها اقتصاداً فى المال والأرواح » .

اقرأ يا أخى هذه الفقرات التى كتبتها المجلة الإنجليزية ، وانظر كيف تشهد بأن حرب المصادرة أو حرب الحصار أو الحرب الاقتصادية إنما هى سلاح عبقرى من أسلحة الحرب وأنها ليست قطعاً للطريق كما يزعم الجهلة المتعصبون . وامض معى لتعلم كيف عرف المسلمون الأولون هذا السلاح معرفة واسعة النطاق ...

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كاد ينزل أدنى ماء ببدر حتى قال له الحباب بن المنذر « يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، قال يارسول الله فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال عليه السلام : لقد أشرت بالرأى ونهض حتى نزل بأدنى ماء من القوم ، ثم غور القلب و بنى حوضاً على القليب الذى أتاه . وما فعل عليه السلام ذلك إلا تقديراً لأثر الحرب الاقتصادية فى سحق قوة العدو . فمنع الماء ومنع الطعام إنما هو سلاح من أسلحة الحرب لا ريب . وتحقيقاً لهذه السياسة الحربية ، كان عليه السلام يحصر أعداءه إذا ما اجتمعوا بقلاعهم ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ، حتى يستسلموا أو يخرجوا للقتال وقد حاصر بنى النضير وأهل خيبر والطائف . أما بنو النضير فقد أقاموا

فى حصونهم وامتنعوا عن لقاء المسلمين ، فأرسل كبيرهم إلى رسول الله يقول « إنا لانخرج من ديارنا وأموالنا فليصنع مابدا له » ... وما عساه أن يصنع ؟ هل أمامه إلا الحصار حتى يطلبوا الصلح ، أو إحراق نخلهم حتى يخرجوا من حصونهم خوفاً عليها ؟ ولئن نادوه بعد إذ حرق نخلهم « أن يا محمد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها » فقد قال تعالى للمسلمين «ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين »وقد ذكرنا فى الفصل الثالث من الباب الأول [1] أن بنى النضير قد بدؤا بالظلم ونقض العهد . فمن شاء فليرجع ليقيس تحريق النخل بما فعلوا . ومما يذكر فى هذا المقام قول الأستاذ أحمد حسين فى كتاب الحرب « وعلى ذلك فان ما تعمد إليه الدول الحديثة من محاولة تدمير منشئات العدو العسكرية كالمصانع ، ومحطات توليد الكهرباء ، وخزانات المياه ، والجسور ، ووسائل المواصلات ، ومحطات السكك الحديدية ، وإتلاف الآلات الزراعية وكل ما من شأنه تعطيل الإنتاج وشل يد العدو عن مواصلة القتال هو جزء لايتجزأ من شرعة القتال وهو واجب ومشروع من ناحية المدافع عن نفسه » .

أما أهل خيبر فقد كانت لهم حصون شتى يحتمون بها . فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفتتحها حصناً بعد حصن . بدأ بحصن ناعم ، ثم ثنى بحصن القموص . فحاصر اليهود فيه عشرين ليلة ، ولما تحصن اليهود بقلعة الزبير ، حاصرهم رسول الله ثلاثة أيام حتى جاءه رجل من اليهود وقال له :ـ « ياأبا القاسم : إنك لو أقمت شهراً ماباليا . إن لهم شراباً وعيوناً تحت الأرض يخرجون بالليل

---

(١) حكومة الرسول « الجزء الأول » .

فيشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك . فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك » فقطع الرسول عليهم الماء ، وأجبرهم على ترك القلعة إلى حيث يلاقونه وأصحابه . ولما افتتح هذه القلعة تقدم حتى أتى آخر حصونهم « الوطيح والسلالم » وقد احتمى القوم بها فهم لايخرجون ، فحاصرهم رسول الله أربعة عشر يوماً وهمَّ أن ينصب عليهم المنجنيق لولا أن سألوه الصلح . وأما أهل الطائف فقد حاصرهم بضعاً وعشرين ليلة كما يقول ابن إسحق أو سبع عشرة ليلة كما يقول ابن هشام.وكان عليه السلام يصلى مدة الحصار بين قبتين ضربتا لزوجتيه أم سلمة وزينب رضى الله عنهما .

وكى ندرك أثر الحرب الاقتصادية فى تقرير مصير الحروب ينبغى أن نقرأ ما كتبه أحد كتاب الفرنجة إذ يقول « لقد كانت هزيمة ألمانيا الاقتصادية فى الحرب العظمى الماضية أشد من هزيمتها فى ميادين القتال ، فقد أنتج الحصار البحرى نتائجه المنشودة فقلَّت الموارد ، ونقصت المؤن والذخائر ، وجاع الشعب الألمانى ، فأرغم حكومته على التسليم ، وفى هذه الحرب ـ يقصد الحرب العظمى الثانية ـ تستخدم انجلترا وفرنسا نفس هذا السلاح البتار ، وتخوضان غمار حرب اقتصادية ليست دون العسكرية إضراراً بالعدو وإضعافاً لروحه المعنوية . وقد بلغ من اهتمام انجلترا بالحرب الاقتصادية أنها أنشأت لها وزارة خاصة ضمن وزاراتها ، واختارت لها رجلا من رجالاتها وهو المستر « كروشن » الذي كان قبل ذلك سكرتيراً برلمانيا لمجلس التجارة . وقد اشتغل فى عمل البنوك سنوات طويلة ، ثم رشح نفسه لعضوية مجلس العموم فى سنة ١٩٣١ فانتخب كنائب من المحافظين وفعلت فرنسا مثل ذلك » .

حرب الأعصاب

وكان من نظم الحرب فى حكومة الرسول التأثير فى روح العدو المعنوية فلكم كان يلذ للرسول أن يعرف أعداؤه عنه القوة واليأس ، فتمتلىء قلوبهم رعباً ، ويستسلمون دون قتال . من ذلك ما حدث فى عمرة القضاء . فما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ المسجد حتى قال « اللهم ارحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » ولقد أمر عبد الله بن رواحة أن ينادى بأعلى صوته أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » فأخذ ابن رواحة يجهر بهذا النداء الإلهى ، والمسلمون يرددون من ورائه فى قوة وحماسة وإيمان ، فترتج أرجاء مكة ، وترتجف قلوب قريش إذ تسمع كلمة التوحيد عالية مدوية ، وترى الإيمان يتدفق من قلوب زادها حياة وملأها قوة ، فتعلم أن القوم الذين فارقوا الأوطان من أجل العقيدة ، لن يتخلوا يوماً عنها ولو فارقوا الروح من أجلها

ومن ذلك ما حدث يوم الفتح . فقد خرج الرسول فى عشرة آلاف من المسلمين يريد قريشاً . ولقى ببعض الطريق عمه العباس ، فأذن له بالذهاب إلى أهل مكة ، يخبرهم بما رآه من قوة جيش المسلمين ، وكثرة عددهم وعدتهم ، حتى يأخذهم اليأس والفزع فلا يقاتلوا وتصبح مكة بلداً حراماً كما يجب أن تكون فركب العباس بغلة الرسول البيضاء ، ومضى إلى مهمته . فقابل أبا سفيان وهو يستطلع لقريش ، فناداه قائلا :ـ « ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله فى الناس واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة ، فقال له أبو سفيان فى ذلة وضعف : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ » فأجابه العباس بقوله « والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك »

فركب أبو سفيان خلف العباس وأسلم بين يدى الرسول .

ولما أسلم أبو سفيان أمر الرسول بحبسه حتى تمر به جيوش المسلمين فيحدث قومه بما يرى . فلما مَرُّوا عليه قال للعباس بعد أن ذُهل بهذه الكتائب التى لم يكن يظن أن تتجمع لرسول الله يوماً :- « ياعباس . مالأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » ثم أسرع إلى قومه فناداهم أن يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » وكان لهذا أثره العظيم فى نفوس قريش ، فقد تفرق أبناؤها : فريق إلى المسجد وآخرون إلى دورهم أو إلى دار أبى سفيان . ولم يلق منهم رسول الله حرباً أو قتالاً إلا فى أسفل مكة حيث خالد بن الوليد .

وغنى عن البيان أن هذا الذى حدث فى عمرة القضاء وغزوة الفتح ، مما قدمنا الحديث عنه إنما هو حرب الأعصاب فى مصطلحات السياسة الحربية المعاصرة . وهو سلاح حرصت عليه الدول الحديثة فى الحرب العالمية الأخيرة كل الحرص فكم راجت تلكم الشائعات التى راحت تعلن فى كل مكان عن أسلحة سرية جديدة تفتك بالعدو فتكا ذريعاً إذا استعملها أصحابها ، وكم سمعنا عن الغرفة رقم « ١٣ » التى هددت المانيا بما تحويه من سلاح خطير ، أو عن الطائرات « الاوتوماتيكية » التى تنطلق دون طيار ، أو عن « الطربيد » الذى يصيب الهدف ، ولو تحرك الهدف عن مكانه . إلى غير ذلك من الشائعات التى لم نرها الا خيالاً طائراً لا يعرف الحقيقة الواقعة ابداً . وليس من شك فى أن هذه الشائعات إنما هى حرب الأعصاب بعينها . تلك الحرب التى تؤثر فى الروح المعنوية أبلغ الأثر ، فتعجل بالهزيمة والإستسلام .

وكى ندرك قيمة هذه الحرب ينبغى لنا أن نسجل مقدار اهتمام الدول بها فى الحرب العالمية الثانية« فلقد كانت المانيا تنفق على الدعاية الخارجية بسخاء غريب . إذ بلغت ميزانية وزارة الدعاية الالمانية عشرين مليوناً من الجنيهات ، حتى لقد استقال الدكتور شاخت مدير بنك المانيا احتجاجاً على سياسة جوبلز الذى كان يستنزف كل ما لديه من خزائن البنك من الذهب نشراً للدعاية فى جميع البلاد . ولكن هتلر آثر دعاية جوبلز على ذهب شاخت . . . . وما حرب الأعصاب التى حطمت كثيراً من الدول واذلت كثيراً من الشعوب الا لون من الوان الدعاية التى يقوم بها ذلك الداعية الخطير جوبلز »[1]

(١) من مختارات مجلة الهلال .

الطابور الخامس

والطابور الخامس تسمية حديثة لتلك العناصر الداخلية التي تعين الغزاة بالجس واستطلاع الأخبار وتثبيط الهمم . وقصة هذه التسمية ان أحد قادة الجنرال فرانكو في الحرب الاهلية الاسبانية كان يقود أربعة فرق من الجيش ليحتل بها مدريد . فقيل له كم تقود من فرق الجيش ؟ قال خمسة ! قيل وأين الخامس ؟ قال داخل مدريد ! و إنما يقصد بذلك انصار الجنرال فرانكو فيها .

ولقد كان الطابور الخامس في الحرب العالمية الأخيرة شراً مستطيراً يفل مقاومة الدول ويجعلها فريسة المستعمرة في أقل من لمح البصر . فلقد كان يعين جنود الهابطات (الباراشوت) على تدمير خزانات المياه ومراكز المواصلات الحديدية ، ومحطات توليد القوى الكهربائية ، كما كان يدير دفة حرب الأعصاب بما يوهن العزائم ويدفع إلى اليأس القاتل والتسليم الذليل . ومن هنا عملت الدول على مقاومته والخلاص منه ما وسعها الجهد .

ولقد كانت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم احرص الحكومات على درء هذا الخطر ، واقدرها على الخلاص منه ، بما أخذت عن القرآن الكريم من دروس اليقظة والحذر ، والقوة والحزم . فاين كان الطابور الخامس قد عجل من استسلام بعض دول أوروبا في الحرب العالمية الأخيرة ، لقد كان أظهر من أن يغيب عن أعين الحكومة الأسلامية الأولى ، وأوهن من أن ينال منها أو يقف أمام حزمها وقوتها . والطابور الخامس إذ ذاك قد كان يتكون من عنصرين اثنين ، هما اليهود والمنافقون .

فأما اليهود فقد ألهم الله رسوله الحذر منهم أول عهده بالمدينة ، حتى لقد

عاهدهم عهداً يحذرهم فيه من الظلم والكيد للمسلمين ، و ينذرهم إذا هم فعلوا شر الجزاء وسوء المصير ، فقال « لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ (يهلك) الا نفسه وأهل بيته » وقد قدمنا القول عن هذا الحديث فى الفصل الثالث من الباب الأول[1] فقلنا « و إنما يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم بالظلم ما قد يقوم به اليهود من محاولات لايجاد الفتن وصد الناس عن الدخول فى الإسلام ، إلى غير ذلك من الأمور التى تضر الإسلام أبلغ الضرر ، وتقف حجر عثرة فى سبيل انتشاره وتقدمه .

وقوله للظالم منهم إن ظلمه لن يكون الا ظلماً لنفسه ، إنما هو تهديد لهم ، و إظهار لقوة المسلمين و بأسهم ، وتحذير لهم مما قد تسوله لهم أنفسهم أو تزينه لهم شياطينهم . وقد كرر الرسول هذا المعنى فى وثيقته مراراً ، فكأنما كان يشعر انه لن يتم بين اليهود والمسلمين وفاق ، لأن اليهود سينزعون إلى العداوة والشقاق ، والدس والكيد والنفاق ، فيقطعون العهد والميثاق ، فأراد أن يلتمس لنفسه العذر إلى الله والناس والضمير ان هو نكل بهم بعد ظلمهم وخروجهم على العهد الذى بينه و بينهم . فقد أنذرهم كثيراً ، وقد أعذر من أنذر

ولا شك أن هذا الانذار والتهديد إنما أراد به الرسول صلى الله عليه وسلم أن تستقر الحال فى المدينة فلا يكون هناك نزاع داخلى بين المسلمين واليهود ، فتستغل قريش الفرصة ، الأمر الذى يمنع الرسول من نشر الإسلام خارج المدينة » ثم انه صلى الله عليه وسلم قد قدّر ماقد تقوم به العناصر الداخلية أو الطابور الخامس من جس لقريش فحرم خروج اليهود من المدينة بغير اذنه ، ونص على ذلك فى وثيقته ولقد قدمنا الحديث عن ذلك فى الفصل الثالث من الباب الأول[1] أيضاً فقلنا « فقد كان عليه السلام يتوقع غدر اليهود به ، و يشك فى اخلاصهم

(١) حكومة الرسول ، الجزء الأول

له ، فحرم عليهم الخروج من المدينة بغير إذنه ، كى يراقب حركاتهم ، ويقف على أمرهم ، ويأمن فى الوقت نفسه شرهم . فليس ببعيد أن يخرج منهم من يفشى أسرار المسلمين ، ويخبر قريشاً بما يود الرسول لو كتمه عنها . وليس ببعيد أيضاً أن يخرج من اليهود من يؤلب القرشيين على رسول الله فيشعل بين الفريقين نيران الحرب والمكيدة » .

ولقد حدث فعلا أن خرج كعب بن الاشرف ـ أحد زعماء بنى النضير ـ من المدينة بغير إذن الرسول ، وذهب إلى مكة يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينشد الأشعار فى رثاء قتلى قريش يوم بدر ، ويشبب بنساء المسلمين حتى اهدر الرسول دمه فقال « من لكعب بن أشرف فانه قد آذى الله ورسوله » . ولقد كان جزاء بنى النضير بما كادوا للمسلمين وتمالئوا مع قريش أن نكل بهم الرسول صلى الله عليه وسلم . ولقد اسلفنا القول عن ذلك فى الجزء الأول من الكتاب .

وقد قام بنو قريظة بدور الطابور الخامس بعد ماأجلى الرسول اخوانهم من بنى قينقاع و بنى النضير عن المدينة . وقصة ذلك أن كبير بنى النضير حى بن اخطب خرج من خيبر ـ التى نزل بها بعد جلائه عن المدينة ـ إلى مكة يؤلب قريشاً على رسول الله . فسألوه عن قومه فقال : ـ تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه . ثم سألوه عن بنى قريظة فقال « أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم » ومعنى ذلك أن حى ابن اخطب أرادا أن يتخذ من بنى قريظة « طابوراً خامساً » ، إذ أنه علل بقاءهم فى المدينة بالمكر لمحمد ، وذكر أنهم ينتظرون الحرب الخارجية ، ليقوموا بدورهم من الداخل فيأتوا المسلمين من فوقهم بينما الأحزاب تأتيهم من أسفل منهم كما

قال الله تعالى (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا : هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً » .

وخطورة الدور الذى يلعبه « الطابور الخامس » نزل الله الروح الأمين ليأمر رسوله بقتال بنى قريظة ، فاستجاب الرسول لأمر ربه وأمر المسلمين الا يصلوا العصر الا فى بنى قريظة ، حثاً لهم على السرعة فى الذهاب اليهم واللحاق بهم ، فسارع المسلمون اليهم ، وحاصروهم حتى نزلوا عند حكم رسول الله فيهم .

* * *

أما المنافقون فقد كانوا ينتهزون الفرص ليكيدوا للإسلام والمسلمون . من ذلك ما حدث بعد غزوة بنى المصطلق ، إذ ازدحم اجير لعمر بن الخطاب يقود فرساً مع رجل من الأنصار على الماء فتشاجرا ، وكادت الفتنة تشمل المهاجرين والأنصار جميعاً لولا أن أصلح الرسول الكريم ذات بينهم ، وألف — بفضل الله بين قلوبهم . ولكن ابن أبىّ شيخ المنافقين ما كان ليترك هذه الفرص تفلت من يده دون أن يستغلها استغلالاً سيئا دنيئا ، فلقد أخذ يحدث من حوله من الانصار قائلاً « ما رأيت كاليوم مذلة ! لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا . والله ما اعدنا و إياهم إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ، إما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل :وظل يبث أفكاره السيئة ليقوض اركان الأمة الإسلامية الناشئة . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم افسد عليه كيده هذا بحسن سياسته ، إذ أمر المسلمين بالرحيل فى ساعة شديدة الحر كى يشغلهم عن الحديث بدعوى الجاهلية .

ولقد همت طائفة منهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولـكنهم هموا بما لم ينالوا ، فقد احبطت يقظة المؤمنين خطتهم وافسدت عليهم تدبيرهم .

والذى نلاحظه فى هـذا المقام أن الرسول صلى الله عليه وسـلم لم يقاتل المنافقين كما قاتل اليهود . بل لقد رفض أن يقتل رئيسهم لما سأله عمر ذلك .

ويرجع ذلك إلى أمور .

(أولا) أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يريد أن يتهم بقتل أصحابه كى لا ينفر الناس من دينه ، وفى ذلك يقول لعمر : « كيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ! ؟ .

(ثانيا) أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يستميل المنافقين إلى الإسلام بلطفة وعفوة ، حتى أنه لما أحسّ بنجاح سياستهقال لعمر « كيف ترى يا عمر ! أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله ، لا رعدت له أنوف ، لو أمرتها اليوم أن تقتله لقتلته » فقال عمر « الخير ما رأيت يا رسول الله » .

(ثالثا) أن اليهود كانوا يجاهرون الرسول بالعداء، ويسبونه فى غير استحياء ويتحدونه ساعة اللقاء ، فاستحقوا منه النـكال والإجلاء ، فأما المنافقون فـكانوا يعملون من وراء حجاب ، فاذا عوتبوا أقسموا أمام رسول الله ما فعلوا ، فظاهرهم الموادعه وباطنهم الـكيد والنفاق ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يحكم على الظاهر ويكل السرائر إلى الله .

وفى ذلك يقول ابن القيم « أنه كان فى ترك قتلهم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم مصلحة تتصل بتأليف القلوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع كلمة الناس عليه وكان فى قتلهم تنفير والإسلام بعد فى غر به ورسول الله أحرص شىء على تأليف الناس واترك شىء لما ينفرهم عن الدخول فى طاعته . وهذا أمر كان يختص بحال حياته صلى الله عليه وسلم » .

رجع الى قواعده سالما !

ومن خير ما يذكر لقادة الحرب فى الحكومة الإسلامية الأولى ، مقدرتهم على الخروج من مآزق القتال دون أن يصيبهم سوء أو يلحقهم أذى . فلقد حدث يوم مؤته أن قتل زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحه وهم الذين قادوا جيش المسلمين الواحد بعد الآخر . واصطلح الجند على خالد بن الوليد ، فحمل اللواء وقادهم .

تولى خالد القيادة ، فأصبح فى حيرة من أمره ، فهو لا يدرى ماذا يفعل أيقاتل فيقتل ، ثم يصطلح المسلمون على قائد آخر يتقدم للقتال فيقتل وهكذا حتى يفنى جيش المسلمين ؟ لا شك أن الحكمة تتطلب غير هذا السبيل . وقد كان خالد حكيما إذ آثر الرجوع من حيث أتى . وهنا تتجلى العبقرية :

فمن أسهل الأمور على الجيوش أن ترتد وتتقهقر وسهام العدو ونباله تكاد تفتك بها وتمزقها شر ممزق .

ومن أصعب الأمور عليها أن ترجع سالمة قبل أن تحل بها الهزيمة التى رأت بوادرها ! ؟ .

وقد رأى خالد بوادر الهزيمة بموت من سبقة من القواد . وقد خلص جيش المسلمين من هزيمة محققة . فيا لها من عبقرية ! لقد بدل خالد مواقف الجيش مختفيا فى ظلمة الليل . فنقل الميمنة إلى الميسرة ، والميسرة إلى الميمنة . وجعل المقدمة فى موضع الساقة ، والساقة فى موضع المقدمة . وأقام من خلف الجيش أناساً

يثيرون الغبار ، و يكثرون الجلبة والضوضاء : فرأى الروم وجوها غير التى رأوها، وسمعوا اصواتاً شتى . فاعتقدوا أن العرب قد واتاهم المدد . . و إذا كان العرب على قلتهم لم يرهبوا كثرة الروم ، بل اندفعوا يقاتلون و يقتلون ، فكيف بالنصر لا يكون حليفهم إذ زاد عددهم وعدتهم . . لا شك أن الروم قد بدءوا يؤثرون السلم خوفاً من الهزيمة الموهومة . . وبينما الروم فى هذه الرهبة والانحلال النفسى إذ بخالد يدفع بنفسه إلى صفوفهم ضارباً بسيفه ورمحه . راداً إياهم عن المسلمين الذين اخذوا يرتدون إلى المدينة .

و بذلك رجع خالد إلى قواعده سالما . . . . ! !

وهـذا الفن من فنون الحرب يكبره القادة فى هذه الأيام ، فقد طبل الحلفاء وزمروا وملئوا الصحف فخراً بقادتهم عندما انسحبوا انسحابا موفقاً من بلجيكا فى الحرب العالمية الأخيرة ، بعد أن شهدوا معركة الفلاندر الرهيبة . ولست انكر ما فى انسحابهم هذا من مهارة وحذق . فلقد كان موقفهم اشد ما يكون حرجاً بعد أن استسلمت قوات البلجيكيين للألمان . . وقد كانت تحتل أهم المواقع فى جيوش الحلفاء . فما كاد الجيش البلجيكى يلقى السلاح ، حتى احتل مواقعة الألمان ، وحاصروا قوات الحلفاء ، ولم يكن بد من الانسحاب ، ولـكن الجيش المنسحب ما كاد ينظر إلى الخلف حتى وجد طريق الانسحاب ضيقا ، تحده المناطق المائية من جانبيه ، و يسده البحر من آخره . ولقد زاد ضيق الطريق من حرج الموقف، إذ أن تجمع القوات الـكبيرة فى البقعة الصغيرة يمكن طائرات العدو منها اكثر مما لو انتشرت فى بقعة واسعة من الأرض . اضف ذلك إلى اعتمادهم فى الإنسحاب على ميناء دنكرك وحده ، بعـد أن تعذَّرت الملاحة فى بعض الموانىء الأخرى نتيجة لاغراق بعض السفن المحملة بالأسمنت فيها .

لست انكر ـ والحالة هذه ـ أن انسحاب الحلفاء فيه كثير من البراعه الحربية والحذق العسكرى . إنما الذى احب أن أسجله هنا انهم لم يفعلوا أكثر مما فعله المسلمون فى سرية مؤته ؛ وأن قادة الحرب فى حكومة الرسول قد سبقوا عباقرة القتال فى القرن العشرين بيد أنهم لم يتعلموا القيادة فى المدارس والجامعات وإنما تعلموها على رمال الصحراء ! .

مجلس الحرب

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الناس مشورة لأصحابه فى أمر الجهاد وأمر العدو وتخير المنازل . وكان كثيراً ما ينزل عند آرائهم و يأخذ بمشورتهم .

فنى غزوة بدر لما بلغه خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانيا فأجادوا . ثم استشارهم ثالثا يريد الانصار . فلما تكلمو بما يرضيه سار حتى بلغ بدراً ، فنزل بأدنى ماء منها : فقال له الحباب بن المنذر : « يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه . ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . ونهض حتى نزل بأدنى ماء من القوم ، ثم غوّر القلب و بنى حوضاً على القليب الذى أتاه . وقد قال سعد ابن معاذ لرسول الله « يا نبى الله الا نبنى لك عريشاً نكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، و إن كانت الأخرى جلست على ركبائك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولوظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفو عنك يمنعك الله بهم يناصحونك و يجاهدون معك » فدعا الرسول له بالخير ونزل عندمشورته ، فكان فى العريش لما بنى له . . . وفى غزوة أحد استشار الرسول أصحابه :— أيخرج إلى أعدائه أم يمكث فى المدينة ؟ وكان عليه السلام

يرى المكث فى المدينة والتحصن بها حتى إذا قدمها المشركون قاتلهم الرجال فى الأزقة والنساء من فوق البيوت ولكن القوم أشاروا عليه بالخروج إلى العدو حتى لا يظن أنهم جبنوا أو ضعفوا عن لقائه . فلما رأى الرسول إجماعهم على ما يرون وإلحاحهم فى الخروج ، سارع إلى بيته ولبس لامته ، فظن الصحابة أنهم أكرهوا رسول الله على الخروج وقالوا « يا رسول الله إن أحببت أن تمكث فى المدينة فافعل » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » فلم يستبد الرسول برأيه إذن ، ولم يكره أصحابه عليه ، بل عمل برأى الأغلبية منهم ، وخرج للقاء قريش . وفى غزوة الأحزاب استشار الرسول أصحابه فى أمر عدوه . فأشار عليه سلمان الفارسى رضى الله عنه بحفر الخندق وتحصين المدينة من الداخل . فلم يضرب الرسول بمشورته عرض الحائط ، ولكنه نفذها ، فأمر المسلمين بها ، وشجعهم عليها .

وإن استشارة الرسول لأصحابه قبل أن تبدأ المعارك تشبه بما نعرفه اليوم باسم « مجلس الحرب » : ذلك المجلس الذى يضم قادة الحرب وأساطين السياسة ، ويبحث شئون القتال وتطورات الموقف الحربى . ولقد كان قبول الرسول صلى الله عليه وسلم لمشورة أصحابه أو « مجلس حربه » دعامة هامة من دعائم النصر الذى أحرزه .

ولقد أيدت الحروب الحديثة أن اعراض الزعماء عن مشورة القادة وآراء الخبراء ، واستبدادهم بالأمر فى شئون القتال . يؤدى حتما إلى الهزيمة الساحقة والخسران المبين .

مجلس الأمن الإسلامي

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس إعجاباً بفكرة الأمن والسلام ورد الظلم والعدوان . ولقد شهد جماعة تحيي هذه الفكرة فى الجاهلية فأثنى عليهم بالخير . وقصة ذلك أن رجلا من بنى زبيد قدم مكة معتمراً فى الجاهلية ومعه تجارة له ، فاشتراها منه العاصى بن وائل السلمى ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، ثم تغيب ، فابتغى الزبيدى متاعه فلم ينله ، فجاء إلى بنى سهم يستعديهم على العاصى بن وائل ، فأعرضوا عنه . فأخذ يطوف بقبائل قريش يستعين بهم ، ولكن عبثاً . فلقد تخاذلت عنه وانتهره الاحلاف حتى إذا خشى الزبيدي على متاعه أوفى على « أبى قبيس » عند طلوع الشمس وقد أخذت قريش مجالسها حول الكعبة . فصاح فيهم مستنجدا . فأغاثه الزبير ابن عبد المطلب ، وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش ليمنعوا القوى من ظلم الضعيف والقاطن من ظلم الغريب ، فقال :

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم ... وإن كنا جميعاً أهل دار

نسميه الفضول إذا عقدنا ... يعز به الغريب لدى الجوار

ويعلم من حوالى البيت أنا ... أباة الضيم نمنع كل عار

ثم قال الزبير : إنى والله لأخشى أن يصيبنا ما أصاب الأمم السالفة من ساكنى مكة ، ومشى إلى عبد الله بن جدعان وهو يومئذ من شيوخ قريش ، فخاطبه فى ذلك ، واجتمعت كلمة بنى هاشم وبنى عبد الأسد وبنى زهرة وبنى مرة فى دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا . وكانت حرب الفجار فى شعبان وحلف الفضول بعدها فى ذى القعدة قبل مبعث رسول الله صلى الله

عليـه وسلم بعشرين سنة . فتحالفوا فى شهر حرام قياماً يتماسكون با كفهم ، وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد حتى يأخذوا له بحقه ثم عمدوا إلى ماء زمزم ، فجعلوه فى جفنة و بعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه ، ثم أتوا به فشربوه ، ثم انطلقوا إلى العاصى بن وائل فقالوا « والله لا نفارقك حتى تؤدى إليه حقه ، فأعطى الرجل حقه ومكثوا كذلك لا يظلم رجل بمكة إلا أخذوا له حقه .

وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحلف . فقالت عائشة فيما روى عنه أنه قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول أما لو دعيت إليه اليوم لأجبت . وما أحب أن لى به حمر النعم وأنى نقضته » .

فلقد كان عليه السلام يعتز بفكرة الأمن ورد المظالم ، تلك الفكرة التى أحياها الإسلام فى هذه المادة من دستوره الحربى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

وهذه المادة من دستور الإسلام الحربى هى ميثاق مجلس الأمن الإسلامى . وهى تتركز فى خطوات ثلاث :

(أولاً) الصلح : وهو محاولة يبذلها ممثلوا الأقطار الإسلامية لإصلاح ذات البين بين الطائفتين ، فيدرسوا أسباب الخلاف ، ويعينوا المعتدِى والمعتدَى عليه فإن أفلحوا فى صد المعتدى بالحكمة والموعظة الحسنة فبها ، وكفى الله المؤمنين القتال .

(ثانيا) القتال : و إذا لم تجد الوسائل السلمية لم يكن بد من ردع المعتدى بالقوة حتى يقلع عن غيه . ووسيلة مجلس الأمن الاسلامى فى ردع البغاة هى قوة السلاح ، لأنها خير وسيلة تصل إلى الهدف فى يسر وسهولة . والذى يتتبع تاريخ عصبة الأمم ، ويتبين فشلها فى معالجة المشاكل الدولية ، نتيجة إعراضها عن سلاح القوة أو قوة السلاح فى دفع الظلم ورد العدوان ، يزداد يقينا بأن قتال المعتدى هو خير وسيلة لردعه وتأديبه ، إن لم يكن — وحده — الوسيلة الرادعة . ففى الدور الأول من الخلاف بين الصين واليابان (١٩٣١ — ١٩٣٣) ، ذلك الدور الذى قام إثر توغل اليابان فى منشوريا ، كان موقف العصبة مائعا لم يعد السعى السلمى والنصح والإرشاد . وكان طبعياً أن تخيب اليابان سعى العصبة وترفض نصحها ، وأن تستمر فى عدوانها على منشوريا ، متذرعة بما تدعيه من أن الصينيين يوجدون حالة من الاضطراب والفوضى .

وفى المشكلة الحبشية الإيطالية ، لجأت العصبة إلى سلاح المقاطعة . فقد اجتمعت وأعلنت أن إيطاليا معتدية فى السابع من « اكتوبر » سنة ١٩٣٥ ، أى بعد تسعة أشهر من احتجاج الحبشة ، ثم قررت فرض العقوبات الاقتصادية على إيطاليا . وطبعى أن تفوق إيطاليا على الحبشة فى القوة الحربية قد عجل بانتصارها قبل أن تؤثر فيها المقاطعة الاقتصادية وتحد من قدرتها على القتال . وليس بعجيب — والحال هذه — أن يصرح موسولينى بقوله : « سننفذ إرادتنا مع جنيف ، ومن دون جنيف ، وبالرغم عن جنيف ! ! » .

فإن سلاح المقاطعة الاقتصادية لا يجدى فتيلا فى الدفاع عن قضية السلام ما دام هناك تفاوت فى القوى المقتتلة . فإذا تعادلت القوى كان أثره بطيئاً لا يعجل بالحق ، ولا يطفىء نار الحرب قبل أن تأكل الأخضر واليابس .

وفى الدور الثانى من الخلاف الصينى اليابانى (١٩٣٧ ـ ١٩٣٨) لم ترفع الصين شكواها إلى عصبة الأمم أول الأمر ، ثم لم تلبث أن رفعتها بعد شهرين من بدء القتال . وليتها ما رفعت ! فما كانت عصبة الأمم لتدفع ظلماً أو ترد عدوانا . وكيف وقد كان حلها « العبقرى » لهذه المشكلة أن أعلنت أسفها الشديد « لقيام الطيارات اليابانية بإلقاء القنابل على المدن المكشوفة » ! ! ومن يدري فلعلها ظنت أن « أسفها الشديد » سيحول بين اليابان و بين العدوان أو بين الطيارات اليابانية و بين المدن الصينية المكشوفة .

إن خير ما نعلق به على سياسة عصبة الأمم ما كتبته « سكرتارية » العصبة نفسها إذ تقول : « إن وسائل التحكيم والتوفيق لا فائدة لها فيما يتعلق بالدول القوية التى أوقدت فى نفوس رعاياها نار القومية والعنصرية والتى تسعى إلى تحقيق مطامع واسعة بحجة أن معاهدات الصلح اقتطعت منها بعض أملاكها أو لم تمنحها فى المستعمرات ما تعتبر أنه حق لها . وكان من الطبعى أن تخفق مساعى العصبة كلما اقتصرت على مطالبة دولة من هذه الدول باحترام العهود والأذعان لأحكام المعاهدات . كما أنه كان من الطبعى أيضاً أن تفلح هذه المساعى متى كانت الدول المحتكمة إليها من غير أنصار العنف وميالة إلى التساهل والتفاهم » .

وقد حدث هذا عند حل المشكلة اليونانية البلغارية سنة ١٩٢٥ فلقد جنح اليونان والبلغار للسلم واستجابوا لنداء العصبة

ولقد بدأت الدول تشعر أن عصبة الأمم لا تنصف من ظلم أو تردمن عدوان . وأن الاحتكام إليها والشكوى لها ، كعدم الاحتكام والشكوى تماما . ومن أجل ذلك لم نسمع عن دولة تحتج لدى العصبة على احتلال المانيا للنمسا

سنة ١٩٣٨...وهذا دليل على أن سلاح القوة الذى نص عليه ميثاق مجلس الأمن الإسلامى فى قوله تعالى « فقاتلوا التي تبغى » إنما هو السلاح الذى يئد الحرب و يعجِّل بالسلام .

(ثالثاً) الدور الذى يعقب القتال : وفى هذا الدور تفىء الطائفة المعتدية إلى أمر الله ، وتذعن للحق ، بعد أن صدتها القوة المسلحة عن بغيها وعدوانها ، و إذ ذاك يشير ميثاق مجلس الأمن الإسلامى بالرفق واللين ، و يأمر بالعدل والقسط ، عند عقد الصلح بين الطائفتين . فحسب المعتدى أن ردعته الحرب وأدبته القوة . وليس من الحكمة أن نجعل من شروط الصلح جحيما لا يطيقه ، فندفعه إلى الثورة عندما يقوى على الثورة ، ونحفزه إلى الثأر متى وجد إلى الثأر سبيلا . بل إن الحكمة فى أن نصلح بالعدل ونقسط كما أمر تعالى .

ولو أن العالم اتخذ من هذه النظرية الإسلامية دستوراً له، لجنب نفسه كثيراً من الحروب المهلكة القاسية . فإن ما رأيناه من ظلم الأمم الظافرة للألمان فى معاهدة فرساى ، قد حفز الألمان إلى الثورة والانتقام ، حتى أشعلوا نيران الحرب العالمية الثانية . ويقيني أن الألمان لو وجدوا فى هذه المعاهدة شيئاً من العدل والإنصاف لتبدل الأمر غير الأمر ، ولتغير وجه التاريخ فى السنوات الماضية . وهكذا يثبت التاريخ الحديث نضج ميثاق مجلس الأمن الإسلامى فى خطواته الثلاث . فهل يدرك ذلك زعماء العالم ، أم أن أبصارهم عميت عن نور الإسلام ، وصُمَّتْ آذانهم عن دعوته !.

قيادة الجيش

لم تكن مهام القيادة الحربية من وضع الخطة وتنظيم الجند تعفى الرسول من القتال كما تعفى قواد اليوم . فقد كان يدعو ربه ثم لايلبث أن يرى فى مقدمة الصفوف ، يجالد الأعداء بسيفه غير هياب ولا وجل . وكم لاقى فى الحرب من جراح وآلام ، فاستعذبها فى سبيل الله . لا يبالى بالموت يمشى بين الصفوف ، وهو موقن بنصر الله . ولا بالنبل يقذف من كل مكان مادام الله يحميه ويرعاه . فيمده بجنود السموات تصد عنه الكيد والأذى بإذن الله .

ألم تر كيف فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلقوا إلى الصوت الذى يسمعون يستطلعون الخبر . فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقهم إليه على فرس لأبى طلحة ، وقد تقلد السيف ، ثم رجع يقول « لن تراعوا لن تراعوا » .

ثم ألم تر ماأصابه يوم أحد ساعة خلص إليه المشركون فجرحوا وجهه الكريم وكسروا رباعيته اليمنى ، وهشموا البيضة على رأسه ، ورموه بالحجارة ، وحفروا له حفرة وقع فيها ...

وأى بطولة هذه التى يسجلها القلم فى يوم حنين ! لقد أخذ المسلمين شىء من العجب ، وتسللت إليهم الغفلة ، فأصابتهم نبال العدو ولما يسفر الليل عن صباح ، فانطلقوا يولون الأدبار فى خوف واضطرب ولم يبق منهم إلا رجل واحد يحيط به نفر قليل من المؤمنين . فاذا الرجل ينادى « إلى أين أيها الناس ؟ » كأنه يريدهم أن يرجعوا فلا يجبنوا عن لقاء الأعداء . ولكنهم لايلوون على شىء ، فيقول للعباس « اصرخ فيهم » فينادى بصوته الجهورى « أن يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة أن محمداً حي

فهلموا ! » فيسمع القوم نداءه ، ويثوبون لرشدهم ، فيقولون : لبيك لبيك ، ويسرعون إلى الرجل ، فيخوض بهم المعركة مستبسلا ، حتى إذا اشتد القتال ، واجتلد الأعداء قال :

أنا النبي لاكذب أنا ابن عبد المطلب

فلم يكن هذا الذى صمد فى وجه العدو ، وآثر اللقاء على الفرار والموت على الحياة ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهكذا كان قادة المسلمين إذا جد الجد يقتدون برسول الله ، فيتقدمون الصفوف ممسكين بسيوفهم يجاهدون العدو حتى يغلبوه أو يقتلوا .

وهذا هو يوم مؤته ... كم فيه من آيات البطولة والاستبسال ما يعجز عن وصفها البيان ، ويكل من تحريرها البنان !.

لقد قاتل قائد المسلمين زيد بن حارثة حتى قتل ، فأخذ جعفر منه الراية وقاتل حتى قطعت يده اليمنى ، فأنشد قائلاً :-

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة و بارداً شرابها

ثم أمسك الراية بيساره ؛ حتى إذا قطعت أمسكها بعضديه ودفع بنفسه إلى العدو حتى مزقته الرماح ، فحمل الراية منه عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل ، ونظر المسلمون إلى جسد جعفر رضى الله عنه ، فإذا مابين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعون جراحة مابين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ليس منها واحدة فى ظهره فهو مقبل أبداً لايولى دبره ولا يعرف القهقرى . فأى بطولة هذه ؟! إنها البطولة التى تلقوها عن قائدهم الأعلى عليه الصلوات . ذلك القائد الذى قال فيه على رضى الله عنه « لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً ! » .

وقد جعلت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة القائد فرضاً واجباً ، فكان عليه السلام كلما أمّر رجلاً على الجند أمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا . وقد حدث أن استعمل عليه السلام رجلاً من الأنصار ، يقال له عبد الله بن حذافة السهمى على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأغضبوه فى شىء ، فقال : اجمعوا لى حطبا ، فجمعوا ، فقال : أوقدوا ناراً فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا بلى ، قال فادخلوها ! فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار » فسكن غضبه وأطفئت النار . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له . فقال : لو دخلوها ماخرجوا منها .. إنما الطاعة فى المعروف . إذ أنهم لو أطاعوا قائدهم فيما أمر لعصوا الله والرسول . وقد جاء القرآن الكريم ينص فى صراحة ووضوح على طاعة الله ورسوله قبل طاعة ولى الأمر فقال « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وقد كان المسلمون يسرعون إلى طاعة قادتهم فى المعروف كل الإسراع ولم يكونوا ينازعونهم حق القيادة والإمارة حرصاً على اجتماع الكلمة وائتلاف الجهود فلقد حدث أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على رأس ثلاثمائة من المهاجرين فى غزوة ذات السلاسل . فلما اقترب عمرو من العدو علم أن له بأساً شديداً ، وجمعاً كثيراً ، فخاف على جيشه الهلاك إن هو نازل القوم ، وأرسل إلى رسول الله يستمده ، فأمده بمائتين عقد لواءهم لابن الجراح ، وجعل فيهم أبا بكر وعمر وفرسان المسلمين ، وأمر أبا عبيدة ألا يختلف مع عمرو . فلما بلغ المدد عمراً ، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فى الصلاة فقال عمرو :- إنما قدمت

علي مدداً وأنا الأمير . فأطاعه ابن الجراح واتخذ منه قائداً و إماماً . وما ذلك إلا طاعة لأمر رسول الله بأن يتطاوعا ولا يختلفا ، وتفضيلا للآخرة على الأولى . فلم يك هؤلاء يكترثون بالدنيا ومظاهرها ، أو يعبئون بالقيادة والإمارة . فالكل سواء أمام الله . ليس للقائد فضل على الجندى إلا بإخلاصه وحسن بلائه . ورب مرؤوس يخرج مغموراً وسط أقرانه فلا يخفى الرياء عليه . ورب رئيس يريه الشيطان نفسه كأحسن ما يكون القائد فى جنده والإمام فى رعيته ، فيطغى عليه الغرور و يملكه العجب .

ولو قد كان أصحاب الرسول طلاب رئاسة أو عشاق قيادة لما اصطلحوا على واحد منهم بعد أن قتل زيد وجعفر وابن رواحة يوم مؤته . لقد أخذ الراية ثابت ابن ارقم فقال : — يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم » فقالوا له انت فقال « ما أنا بفاعل » زهداً منه فى الرئاسة واعراضاً عن تبعاتها الجسام ، ثم لم يلبث الجند ان اصطلحوا على خالد بن الوليد ، فوليها دون أن يجد منافساً أو منازعاً . ولو كان قوم غيرهم لاختلفوا وتفرقوا ، واستبدت الأثرة بهم فلا يصطلحون على قائد حتى يكيد له الآخرون أو يمتنعوا عن القتال تحت رايته . ومتى دب الحقد والحسد فى نفوس الجند فقل على النصر السلام .

* * *

وقد كان من أهم واجبات القائد أن ينظم جنده و يرتب جيشه اتباعاً لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) فكان عليه السلام يرتب الصفوف و يعين الأماكن بيده ، فيقول لهذا تقدم ولذاك تأخر . ففى غزوة بدر عدَّل جنده حتى استقامت صفوفهم ، ودفع اللواء الى مصعب ابن عمير ، والراية التى للمهاجرين إلى علي بن أبى طالب ، والأخرى التى للانصار

إلى سعد بن معاذ ، وجعل على الساقة قيس بن صعصعة . وفى غزوة احد نظم عليه السلام جنده بعد أن جعل ظهورهم إلى الجبل ، فاعطى اللواء معصب ابن عمير ، وجعل على احدى المجنبتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى المنذر ابن عمرو . ثم طاف بالجند يرد من ليس أهلاً للقتال . فرد يومئذ عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زبيد ، وأسيد بن ظهير ، والبراء بن عازب ، وزيد بن ثابت ، وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزام .

ولم يكن عليه السلام ينظر إلى صغر السن ما دام الجسم قوياً نامياً فقد أجاز اثنين من الصبية هما سمرة بن جندب ورافع بن خديج لما رآهما مطيقين . وقد قال ابن عمر لما اذن له بالقتال « فلما رآنى مطيقاً أجازنى » وخير ما يؤكد ماتراه من أن القدرة لا السن هى مقياس الانضمام إلى الجندية ما رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب عند ذكر سمرة بن جندب من ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض غلمان الانصار فى كل عام فمر به غلام فأجازه فى البعث ، وعرض عليه سمرة بن جندب من بعده فرده ، فقال سمرة يا رسول الله لقد أجزت غلاماً وردتنى . ولو صارعنى لصارعته . قال فصارع ، فصارعه سمرة فصرعه ، فأجازه الرسول صلى الله عليه وسلم فى البعث .

وقد أخرج ابن سعد عن سعد قال رأيت أخى عمرو بن أبى وقاص قبل ان يعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر متوار يا فقلت مالك يا أخي قال اني أخاف أن يرانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرنى فيردنى وأنا أحب الخروج لعل الله ان يرزقنى الشهاده ، فعرض على رسول الله صلى الله وسلم فاستصغره . فبكى فاجازه فكان سعد يقول فكنت اعقد حمائل سيفى من صغرى ، فقتل وهو ابن ستة عشر عاماً .

ومن هذا الذى قدمناه يتبين لنا أن رسول الله صلى عليه وسلم كان يعرض صفوف الجند قبل القتال لينظمها ، ويرد من لا يطيق القتال ، ويجيز من يطيق ولو كان صغير السن ، فربما رد غلاماً فبكى شوقاً إلى الشهادة وحباً فى الجهاد فاجازه كما فعل بعمرو بن أبى وقاص . وربما رد غلاماً وأراد أن ينتفع به فجعله فى حرس المدينة . وان هذا التنظيم والترتيب والعرض كان من أهم واجبات القيادة كما قدمنا .

الأمداد الملائكى

لست أشك فى أن نصر الله سبحانه للرسول وصحبه فى حروبهم وغزواتهم حقيقة ثابتة لا ينكرها باحث مدقق ولا مؤمن صادق . فلله جنود السموات والأرض . ومن جنوده الرعد والبرق والمطر . ان سلطها على قوم فلا حياة لهم أبداً . فقد أشار الحباب على رسول الله يوم بدر ان ينزل مكاناً يمكن المسلمين من الماء ويمنعه عن قريش . وكانت قريش هى الأخرى تريد ان تسرع إلى الماء فتمنعه عن المسلمين وتظفر هى به . ولكن الله تعالى حى لا ينام ، يقظ لا يغفل . . لقد وعد عباده النصر . ولئن ظفرت قريش بالماء ومنعته عن المسلمين لما تحقق ذلك النصر ، وحاشا لله إذا أراد شيئا ان لا يتم . إنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له : كن فيكون . ولله جنود السموات والأرض . لقد أرسل الله على الأرض مطراً كان شراً ووبالاً على قريش ، وبرداً وسلاماً على المسلمين : كان المطر غزيراً على معسكر قريش ، وكان معها كثير من الخيل ، فلم تقو لغزارة المطر وبلوله الأرض على الاسراع إلى الماء . وكان المطر قليلا هادئاً على معسكر المسلمين فلبد لهم الأرض وجعلها ذلولاً لابلهم ، فثبتت أقدامها على الرمال . فسبق الرسول وصحبه إلى الماء وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداه من المياه .

ومن جنوده الملائكة عليهم السلام . وقد تجلى نصرهم للمسلمين فى بدر حتى سمعوهم وأحسوا بهم ، فلم يبق الا أن يكشف عنهم الحجاب فينظروا إليهم . ولا عجب فهذا ابن عباس رضى الله عنه يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه فيسمع ضربة سوط وصوت فارس يقول : اقدم حيزوم ، ثم يرى المشرك أمامه ملقى على الأرض وقد خطم انفه وشق وجهه من أثر السوط ، فيعلم أن

هناك غيره قد فعل ذلك ، و يذهب إلى رسـول الله عاجباً يحدثه بأمر حيزوم ! فيقول له الرسول صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ! !

وقد كان أبو داود المازني يتبع رجلاً من المشركين ليضربه ، و بينما هو كذلك إذ برأس المشرك تقع على الأرض قبل ان يصل إليه سـيفه فيعلم أن هناك من قتله غيره .

وقد استطاع رجل من الانصار ان يأتى بالعباس بن عبد المطلب أسيراً إلى رسول الله . ولـكن العباس صاح قائلا « ان هذا والله ما أسرنى . لقد اسرنى رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً ، على فرس ابلق . وما أراه في القوم ! ! فقال الانصارى « أنا أسرته يا رسول الله » فقال الرسول « اسكت فقد ايدك الله بملك كريم ! » .

ولم يكتف الملائـكة بالحرب والقتال، بل كانوا يطهرون الشهداء فيغسلونهم بالماء إن كانوا جنبا . من ذلك ما حدث لحنظله ابن أبي عامر ، فقد سمع صيحة الجهاد يوم أحد وكان على امرأته فقام من فوره يجاهد فى سبيل الله ، فقاتل حتي قتل فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن الملائـكة تغسله ثم قال سلوا أهله ما شأنه ، فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر .

ولا نستطيع أن نقف عند الإستشهاد بجند الله ، ففى هذه الحادث بطولة ورجولة لا يستطيع القلم أن يقف أمامها على القرطاس ، بل أنه ليجرى بكلمات التقدير والإعجاب . فهذا الرجل ـ رضى الله عنه ـ يجامع امرأته ، فيسمع الصيحة و يسرع إلى الله ورسوله ولما يقض شهوته ، لأن لذة الجهاد من أجل الله خير من الدنيا وما فيها . وكيف لا ، وهي لذة الروح ، ترتفع بصاحبها من مادية الأرض إلى روحانية السماء . . . ان هذا الرجل قد آمن الله ، ولا يؤمن إنسان

حتي يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه . فكيف بجامع النساء وغيره يسرع إلى الهيجاء ؟ بل وكيف يفضل امرأته على الله ورسوله ؟ ! لقد فاض هذا القلب المؤمن بحب الله . فانتهى عما نهى عنه الله إذ يقول (قل إن كان آباؤكم وابناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لايهدى القوم الفاسقين) .

فلا عجب ان أكرمه الله بهذا الشرف العظيم . فانزل ملائكة تغسله وتطهره فلله هذا من وسام ! ولله هذا من شرف !

ولقد روى نافع بن جبير عن رجل من المهاجرين أنه قال « شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل ذلك يصرف عنه » فمن كان يصرفها عنه إلا الله ، ومن كان يحميه إلا جند الله ، فتدفع عنه الأذي بإذن الله . هذه الأحجار تتفتت قبل أن تصل إليه ، أو تطير بها الريح بعيداً عنه ، أو تهبط هى من خشية الله أن تصيب رسوله واحب الخلق إليه . وكل لله جند وكل لله طوع .

ولقد أكمل هذا المهاجر حديثه فقال « ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد لا نجوت إن نجا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فعاتبه فى ذلك صفوان ، فقال والله ما رأيته أحلف بالله أنه منا ممنوع . وهنا يسخِّر الله جنده كما سخرها يوم الهجرة ، فأعمى بصر ابن شهاب كما أعمى رجال القبائل عندما أحاطوا ببيت رسول الله. ورسول الله ليس ببعيد ، وإنما هو إلى جانبه ، إلا أنه ممنوع كما شهد الرجل . ومن يمنعه إلا الله ؟... وكفى بالله مانعاً . وكفى بالله نصيراً .

وإن يوم الخندق ليمتلىء بنصر الله وتأييده . فقد سخَّر الله جنده لنصرة دينه - البرق يلمع فيخطف الأبصار ، ، والرعد يقصف فيثقل الآذان ،والمطر يهطل فيطفىء النيران ، والريح تعصف فتكفأ القدوروتقوض الخيام ، والرعب يقذف فيسلب الأمن من النفوس ، والأرض تميد بهم فلا يقر لهم قرار، وترى القوم سكارى ، وما هم بسكارى ، ترتفع الصيحات من أفواههم مضطربة خائفة ، تنادى بالنجاة من هذا البلاء فيسرع القوم و يولون الدبر ، يظنون أن قد نجوا ،والساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . و إذ ذاك تقلع السماء ، وتبلع الأرض الماء ، و يخمد البرق ، و يسكت الرعد ، وتهدأ الريح . و ينظر المسلمون أمامهم ، فلا يجدون عدوهم ، فتمتلىء قلوبهم بحمد الله ، وتردد ألسنتهم قوله الكريم « و لله جنود السموات والأرض » و يعبر شاعرهم عما تختلج به نفوسهم فيقول :

حتى إذا بلغوا المدينة وارتجوا ... قتلى الرسول ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم ... ردوا بغيظهم على الأعقاب
بهبوب معصفة تفرق جمعهم ... وجنود ربك سيد الأرباب
فكفى الآله المؤمنين قتالهم ... وأثابهم فى الأجر خير ثواب

وعندما دخل الرسول المدينة : وضع السلاح ، لكن جبريل لم يمهله أن جاءه فقال « أوضعتم السلاح . فما وضعت الملائكة السلاح بعد . وما رجعت الآن من طلب القوم . إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم » فقال عليه السلام لأصحابه « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظه . فأسرع المسلمون إليها . وهناك أيدهم ربهم بنصره وأمدهم بجنده « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ،وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم

وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا»

والمؤرخون أمام هذا النصر الإلهى والمدد الملائكى فريقان . فريق يرى أن قتال الملائكة كان حسياً ، وفريق آخر يرى أن الإمداد الملائكى كان إمداداً معنوياً .

والفريق الأول يستند إلى ظاهر الآيات التي أشارت إلى هذا الإمداد ، وإلى الأخبار التي سجلها التاريخ عن غزوات المسلمين ، والتى قدمنا الحديث عنها ، وهم من أجل ذلك يعتقدون أن المسلمين لم يكونوا ٣١٤ محارباً فى غزوة بدر مثلا ، وإنما كانوا ٣٣١٤ أو ١٣١٤ : ٣١٤ من الإنس والباقى من الملائكة

وفى الحق أن الباحث لا يكاد يرى مثل رأى هؤلاء المؤرخين ، ويذهب إلى ماذهبوا إليه من أن الإمداد الملائكى كان حسياً حتى يسأله عقله ، وما حاجة المسلمين إلى ألف أو ثلاثة آلاف من الملائكة مادام الامداد حسياً ؟ ألا يكفى ملك واحد ليهزم أقوى جيش ؟ وكيف لا وقوته من قوة الله لا تقاومها أية قوة .

وإذا سلمنا أن الامداد الملائكى كان حسياً ، ألا تتضاءل معه جهود المسلمين فى غزوة بدر أمام جهود الملائكة [1] .

ليس أمامنا إزاء التاريخ الذى يثبت بحقائقه أن القتال كان حسياً والعقل الذى يعجب بما يبديه من أسئلة يمليها عليه المنطق ؛ كيف كان القتال حسياً ، ليس أمامنا إزاء التاريخ وحقائقه ، والعقل ومنطقه إلا أن نذهب إلى رأى وسط بين التاريخ والعقل . إن من البله أن نضرب بالعقل ومنطقه عرض الحائط ، كما أن

---

(١) يرى الأستاذ عبد الوهاب خلاف بك أن الامداد الملائكى كان إمداداً معنوياً ، ويرى غيره أنه كان حسياً . فأما رأينا فنفصله فى الصفحتين التاليتين .

من التجنى أن نقذف بالتاريخ وحقائقه وجه الفضاء ، فمن البله أو التجني أن نميل إلى العقل وندع حقائق التاريخ أو نميل إلى حقائق التاريخ وندع منطق العقل عند مايبدو لنا شيء من التعارض بينهما ، إذ من اليسير على الباحث المفكر أن يوفق بين العقل والتاريخ ، فلا أظن أن الحقيقة تتعارض مع المنطق أبداً ، بل ولا أعتقل ذلك .

فليس يعنى تحديد القرآن امدد الملائكة الذين أمد الله بهم المسلمين بألف أو بثلاثة آلاف ، أنهم اشتركوا جميعاً فى القتال أو أنهم اشتركوا بعضهم أو كلهم اشتراكاً كاملا . فاشتراكهم جميعاً ، أو اشتراك بعضهم اشتراكا كاملا معناه هلاك جيش المشركين فى أقل من لمح البصر . وهذا ما لم تؤيده حقائق التاريخ فإنما كانت المعركة كسكل المعارك يموت من أحد الفريقين كما يموت من الآخر ثم ينتهى الأمر بانتصار فريق على فريق بعد جهد وعناء من الفريقين . ولو كان القصد إهلاك قريش ، لما أرسل الله ألف ملك . بل ولما ارسل ملكا واحداً وإنما تهلكهم مجرد الرغبة الإلهية . فما تلحق الكاف النون من قوله تعالى كن حتى يكونوا قد بادوا دون ملك أو ألف ملك .

وأكبر الظن أن القصد من ذكر الملائكة بهذه الكثرة عند التحدث عن امداد الله بهم عبادة، إنما كان لاظهار جبروت الله وقوته وأن له جنود السموات والأرض ، وبث الطمأنينة فى قلوب المسلمين كى لا يخافوا من قلة ، فهم بالله وجنده كثير. وأكبر الظن كذلك أن هذه الألف أو الآلاف من الملائكة كانوا حاضرى المعركة على اهبة القتال ، إلا أنهم اشتركوا اشتراكا طفيفاً بالنسبة إليهم كملائكه عظيما بالنسبة للمشركين كبشر .

كما أن اشتراكهم كان فى مواضع خاصة كحماية من يريد الله حمايتهم من المسلمين ، كرسوله و بعض الصحابة الذين يرجو الرسول أنه يشدوا من أزره . وفى أوقات خاصه لعلها عند ما يخشي على المسلمين الهزيمة ، كأن يردوا المشركين ثم يمكنوا للمسلمين منهم و يدعوا المسلمين بعد ذلك يحاربون و يبذلون الجهد وهكذا حتى يكتب الله لهم النصر .

مصادر الكتاب

القرآن الكريم

صحيح البخارى

سيرة ابن هشام

الطبقات الكبرى لابن سعد

التراتيب الادارية

الأحكام السلطانية للماوردى

الخراج لأبى يوسف

تفسير المنار

زاد المعاد لابن القيم

القرآن والقتال للشيخ شلتوت

النظم الإسلامية للدكتورين حسن إبراهيم وعلى إبراهيم

عصبة الأمم للبدرمانى

عصبة الأمم لسكرتارية العصبة بجنيف

الحرب العظمى « لعمر أبو النصر »

الحرب العظمى لكاتب فرنسى تعريب ادوارد مرقص

الحرب لأحمد حسين

بحوث متفرقة فى بعض المجلات الثقافية .

فهرس الكتاب

٥ تقديم
٧ كيف شرع القتال
٩ حكومة الرسول حكومة سلام
٢٠ غاية الحرب فى الإسلام
٢٢ علاقة المسلمين بالدول المجاورة
٢٦ الحروب الإسلامية والمبادئ الانسانية
٣٥ العهود والمواثيق
٤٢ الفضيلة فى حروب الإسلام
٤٦ القتال فى الشهر الحرام
٤٨ الاسرى
٥١ هل يستعان بغير المسلم ؟
٥٥ القوة المعنوية
٦٠ القوة المادية
٦٩ التدريب العسكرى
٧٠ التجنيد الاجبارى
٧٨ النساء والحرب
٨٥ الجاسوسية
٩١ الحرب خدعة
٩٦ الحرب الاقتصادية
١٠٠ حرب الاعصاب
١٠٣ الطابور الخامس
١٠٨ رجع إلى قواعده سالما
١١١ مجلس الحرب
١١٣ مجلس الامن الإسلامى
١١٨ قيادة الجيش
١١٤ الامداد الملائكى
١٣١ مصادر الكتاب